سعد بن أبي وقاص

عبد الحميد جوده السحار







سعد بن أبي وقاص

وأبطال القادسية

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

عهد جديد

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم
فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾
(قرآن كريم)

انحدرت الشمس ومست الأفق ، فاصطبغ بلون الأرجوان ، وبدت كذبيحة تخبط فى دمائها . وجلس سعد بن أبى وقاص ، وهو فتى فى السابعة عشرة من عمره ، قصير دحداح ، ذو هامة ، خشن الأصابع يبرى النبل فى هدوء . وكان السكون يسيطر على المكان ، إلى أن عاد الناس من أرباض مكة بسرحهم ، فمزق رغاء الإبل غلالة السكون . وأقبل الشباب من قنصهم ، راكبين كرائم جيادهم متوشحين أقواسهم ، فارتفع صهال الخيل وقهقهة الشباب لملحة ألقاها أحدهم ، فدبت الحياة فى المكان ، وراح كل يلتفت إلى الظباء التى صرعها مزهوا ، وقال أحدهم :

ـــ مساء الخير .

ـــ إلى أين ؟ ألا تأتى معنا إلى الكعبة تطوف قبل العودة إلى الدار ؟

ـــ سأتجه أولا إلى سعد لأبرى نبلى ، ولأستعد للقنص غدا .

ولوى الشاب أعنة جواده ، واتجه إلى سعد ، فلما بلغه ترجل عن جواده

وحيا سعدا ، وجلس يرقبه وهو يعمل بمهارة ، ثم قال له :

ـــ أتجيد يا سعد الرماية إجادتك للبرى ؟

فرفع سعد رأسه ، والتمعت فى عينيه ابتسامة عارضة ما لبثت أن اختفت ، وتطلع إلى السماء ، فلمح زفة قطا ، فتناول سهما ووضعه فى قوسه ، وقال :

ـــ أيها تريد فأصرعها لك ؟

فأشار إلى واحدة منها ، فسدد سعد سهمه وأطلقه ، فأرداها .

ـــ مرحى سعد مرحى ، ما حسبتك قط ماهرا فى الرماية إلى هذا الحد .

* * *

وابتدأ الليل فى مد ردائه الأسود على الكون ، فانصرف سعد إلى داره ووضع العشاء ، فجلس وأمه يتناولانه ، فكانت أمه تحنو عليه ، وترنو إليه بعين الحب . وكان بارا بها ، يستمع إلى حديثها ونصائحها ، وكانت تعلو شفتيه بين الفينة والفينة ابتسامة حلوة تنطق بما يكنه لها من حب وعطف ، وبر وطاعة .

ورفع العشاء ، وأوى سعد إلى فراشه ، وأغمض عينيه ، فراح فى سبات عميق ، فرأى نفسه فى ظلام دامس ، لا يبين شيئا ، ولا يرى شيئا ، فجعل يحاول الخروج من هذا الظلام اللجى ، وراح يتحسس بيده لعله يجد منفذا للانفلات منه ، ولكنه لم يجد مخرجا ، وأخذ يخترق الظلام المتراكم بعضه فوق بعض ، فكان يخرج من ظلام ليدخل فى ظلام ، واستمر يخبط على غير هدى ، حتى نال منه التعب والكلال ، وانبهرت أنفاسه ، وجعل صدره يعلو وينخفض ، وأحس ساقيه لا تقويان على حمله ، فجلس غارقا فى بحر الظلمات منزعجا مضطربا ، يحس ضيقا يكاد يقضى عليه . وبينا هو فى ضيقه وتبرمه ، إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فأحس سعد الحياة تدب



أتجيد يا سعد الرماية إجادتك للبرى ؟

فى نفسه ، والسرور يهزه ، فتفرس فى القمر فرحان جذلان ، فرأى شيئا عجبا . رأى أبا بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة يطلون من القمر ، ويشيرون إليه ليلحق بهم ، فقال لهم :

ـــ متى انتهيتم إلى ها هنا ؟

فقالوا له : الساعة .

وهب سعد من نومه مذعورا ، واعتدل فى فراشه ، وجعل يستعيد منامه ويحاول تأويله ، فلا يجد له من تأويل . ورقد ليستأنف نومه ، ولكن النوم جافاه وخاصم عيونه . وراح فكره يعمل ، فألفى نفسه يفكر فى رؤياه برغمه ، وطفق يتقلب فى فراشه كتقلبه على الجمر ، وأغمض عينيه لعل النوم يمس بأنامله الرقيقة جفنيه ، ولكنه صد ونأى ، وفر معرضا عنه .

وارتفع صياح الديكة معلنة قدوم طلائع النهار ، فارتاح سعد لسماعها ارتياحه لسماع بشرى سعيدة ، فقد أعلنته بانقضاء الليل ، وإدبار أحلامه التى أقضت مضجعه ، وقرب قدوم النهار الذى ينكب كل فيه على عمله فينسى نفسه . وما كاد صياح الديكة ينقطع حتى عاد يفكر فيما رأى فى منامه ، فتمتم :

ـــ أضغاث أحلام ، فلم أعيرها كل هذا الاهتمام ؟

وتسللت أشعة الشمس إلى حجرته ، ففر الظلام من وجهها ، وتركها توطد سلطانها على المكان . رأى سعد نور الصباح فترك الدار واتجه إلى عمله ، واستأنف برى النبل لشباب مكة المولع بالقنص والصيد .

جلس سعد يبرى النبل فى هدوء ، وارتفعت الشمس ، ودبت الحياة فى مكة ، وأقبل أبو بكر بن أبى قحافة ، فسلم وجلس ، واستأنف سعد عمله ، وساد الصمت بينهما إلى أن قطع أبو بكر حبل السكوت ، قال :

ـــ جئتك يا سعد فى أمر ذى بال .

فتوقف سعد عن البرى ، ورفع رأسه ، والتفت إلى أبى بكر وقال :

ـــ خيرا !

ـــ خيرا إن شاء الله . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت خاله ، وهو منكم .

ـــ إن محمدا غير متهم ، فهو يؤدى الأمانة ، ويصل الرحم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الدهر .

ـــ قد نزل على محمد وحى من السماء ، أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده رافع السموات ، وباسط الأرضين .

ـــ أيكفر باللات والعزى وهبل ؟

ـــ أجل ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئا ، ولا تدفع عن نفسها ضرا .

فأطرق سعد ، وقال أبو بكر :

ـــ إنه يا سعد لا يبغى من وراء ذلك جاها ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا ، وله من نسبه فى قريش مكان الذروة والسنام . على أن دعوته هى إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار الصماء إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، وإن هذه الدعوة التى لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ، والتى تخلى الطريق بين العبد وربه ، يدخل إليه بغير واسطة ، ويتقرب إليه بغير زلفى ، وتدعو إلى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وتنفر من الواد والقطيعة والتراشق ، فهى هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

استمع سعد إلى أبى بكر فمس كلامه شغاف قلبه ، وتفتحت له نفسه ،

وأراد الله له الرشد والهداية ، فسأل أبا بكر :

ــ ومن تبعه على دينه هذا ؟

ــ أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

فأطرق سعد ، وتذكر رؤياه التى أقضّت مضجعه فغمغم : « لقد كانت رؤيا صادقة » ، ثم رفع رأسه والتفت إلى أبى بكر وقال :

ــ وأين رسول الله الآن ؟

ــ فى شعب إجياد يعبد الله مستخفيا .

ــ هيا إليه !

وانطلقا ، وأغذا فى السير حتى بلغا شعب إجياد ، فألفيا رسول الله ﷺ قائما يصلى ، فجعل سعد يرمقه متعجبا ، ويتبعه بنظره . ولما أتم الرسول صلاته ، اتجه أبو بكر وسعد إليه ، وسلما عليه ، وعرض النبى على سعد الإسلام ، وقرأ القرآن ، فأخذ سعد بعذوبته ، وفتن برقته ، وانتشى بحلاوته ، وكان لجرسه وقع عظيم فى نفسه ، فقال :

ــ أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا .

* * *

اغتسل سعد ، وقام يصلى صلاة العشاء ، وكبر وابتدأ فى الصلاة . ولما سجد دخلت عليه أمه ، فألفته يهمهم بصوت خاشع خفيض . فراحت ترقبه فألفته لم يعرِ مقدمها انتباها، ولم يقبل عليها كعادته ، بل ظل فى همهمته وقيامه وقعوده وسجوده ، فأحدثت جلبة لتنبهه إلى مقدمها ، ولكن سعدا ظل فى همهمته ولم يلتفت إليها ، ولم يأبه بها ، فهتفت :

ــ سعد !

فلم تسمع لهتافها جوابا ، فصاحت غضبى :

ـــ سعد ، ما تفعل ؟

فلم يبلغ آذانها إلا رنين صوتها ، فازداد غضبها ، واتجهت إليه فوجدته يلتفت يمينا ، ثم يلتفت شمالا ، ثم ينهض ويقبل عليها منشرحا ، ويفتر ثغره عن ابتسامة حلوة ، فيها غبطة واطمئنان وهدوء ، ويرنو إليها بعين الحب والعطف ويقول :

ـــ ماذا يا أماه ؟

ـــ ما كنت تفعل الآن ؟ ولمن تسجد ؟

ـــ كنت أصلى وأسجد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، خالق كل شيء وفاطر السماء والأرض .

ـــ أتصلى لإلـٰه غير آلهتنا وآلهة آبائنا ؟

ـــ ما آلهتكم إلا أحجار صماء .

ـــ أتسفه أحلامنا وأحلام آبائنا يا سعد ؟ عد إلى رشدك ، ودع هذا الدين الذى أحدثت .

ـــ لا يا أمت ، فإنى لا أدع دينى ، فإنه دين الحق وإنى أدعوك إليه .

ـــ ثب إلى رشدك يا سعد ، ولا تغضبنى عليك ، ولا تصبأ فتكونن من الخاسرين .

ـــ إنى لأرجو أن تستمعى إلى عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

ـــ لا لن أستمع إليك . لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى .

ـــ لا تفعلى يا أمت فإنى لا أدع دينى .

ـــ يا سعد رفقا بى فما عهدتك إلا بارا رحيما .

ـــ تعلمين مبلغ حبى لك وإعزازى إياك ، وإنى ما رددت لك طلبا قط ، ولكنك تطلبين محالا ، تطلبين ممن هدى إلى الصراط المستقيم أن يتنكب الطريق القويم ، تطلبين ممن عرف الحق أن يعود ليخبط فى الضلال ، وإنى يا أمت كالأعمى الذى رد إليه بصره ، فكيف تطلبين منه أن يعود أعمى كما كان أو أضل سبيلا ؟ لا لن أدع دينى أبدا .

ـــ ولن أذوق للطعام طعما بعد اليوم .

وتركته أمه وخرجت غاضبة ، وبقى سعد يفكر فى الدين الجديد ، ويستعيد ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فيحس الطمأنينة تشيع فى نفسه . واتجه أخيرا إلى مضجعه ونام ليلته الأولى راضيا مرضيا ، فى كنف الله ورسوله .

تصرم اليوم الأول ، وبقيت أم سعد على وعدها لا تأكل ولا تشرب ، فبلغ منها الجهد ، وأحست جوعا هالكا ، وعطشا قاتلا ، ودب الضعف فى أوصالها ، وشعرت بدوار وخور ، وبأثاث الدار يتراقص أمام عينيها ، فاستلقت على فراشها يكاد يغمى عليها من شدة الوهن ، ودخل سعد ليدعوها للعشاء ، فزفرت زفرة ، وأهت أهة ، وأجهشت بالبكاء لعلها تبلغ بدموعها ما لم تبلغ بتوسلاتها ووعيدها وتهديدها ، ولكن سعدا طأطأ بصره وقال :

ـــ ألا تقومين للعشاء ؟

ـــ لا . سأبقى هكذا حتى أموت .

ـــ اللهم اهدها سواء السبيل .

وخرج وتوضأ ، ووقف يصلى صلاة العشاء ، فراح يقرأ القرآن بصوت صك أذن أمه ، فتيقنت أنه جاد لا هازل ، وأنه لن يتخلى عن دينه ولو فاضت روحها ، فازدادت حزنا على حزن ، وجعلت تدعو سلطان الكرى ليريحها من آلام الجوع والعطش ، وآلام النفس الحزينة ، ولكن سلطان الكرى صد

وهجر ، فما كان ليطوف بالجائعين ، أو يصل المحزونين المتوجعين . ومر الزمن بطيئا على أم سعد ، وأحست كأن ليلتها ليس لها نهاية ، وظلت قلقة أرقة ، منزعجة مضطربة ، تتذكر أيام كان سعد يطيعها ويحنو عليها فتزداد غما وهما ، وتتخيل شبح الموت فتتزلزل الأرض تحت جنبيها ، ويصيبها دوار على دوار . وانقضت الليلة بآلامها ، وكاد البوار يصيبها ، وتلاشت مقاومتها ، وعزمت على أن تجيب ابنها إذا دعاها إلى الطعام ، ولكن ما إن دخل ليدعوها إليه حتى أخذتها العزة بالاثم ، فرفضت وتماوتت لعل قلب سعد يلين ، ولعل سعدا البار بأهله يرق لرؤيتها تقضى ، فيرتدع ويرتد إلى دين أهله وعشيرته ؛ إلى عبادة اللات والعزى وهبل ، ولكن سعدا نظر إليها وقال :

— والله لو كان لك ألف نفس ، فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت دينى هذا . وتركها وخرج ، ووضع الطعام وابتدأ فى تناوله . وأحس حركة عند الباب ، فالتفت فرأى أمه مقبلة نحوه تترنح ، فهب واقفا ، ومد لها يده لتتكئ عليها ، وسار بها حتى بلغا مكان الطعام فأجلسها بجواره ، ومدت يدها إلى الطعام ووضعته فى فمها ، فرنا سعد إليها مسرورا يكاد يطير من شدة الفرح .

* * *

علمت قريش أن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، وأنه يدعو إلى عبادة إلٰه واحد ، وأنه يسفه أحلام القوم ، ويسب آلهتهم ، ويسخر من معتقداتهم ، ويرمى آباءهم بالضلالة والجهل ، ويدعى أن آلهتهم جميعا ما هى إلا أصنام بلهاء ، فحز ذلك فى نفوسهم ، فأرصدوا العيون حوله وحول من اتبعه ليعدوا حركاته وسكناته ، وحركات أتباعه ، ويوافوا قريشا بها لعلهم يدرءون هذا الخطب المدلهم ، ويصدون الناس عن الافتتان بهذا الدين الجديد الذى استحدثه محمد ، هذا الدين الذى جاء يفرق بين القبيلة

والعشيرة والأسرة ، وليحض الناس على قطع أوشاج ما يربطهم بآبنائهم ، وليدفعهم إلى الثورة على معتقدات أسلافهم ، وليغير من أوضاع الناس ، فيجعل الفقراء أندادا للأغنياء . وقد كان أكثر الناس مقتا لهذا الدين الجديد عظماء القوم ، ورؤساء القبائل ، فقد أحسوا أنه ما جاء إلا ليقوض سلطانهم ، وليحد من نفوذهم ، بل ليخفضهم ويرفع آخرين ، فوطنوا العزم على محاربته بلا هوادة أو لين ، عسى أن يتمكنوا من أن يقضوا عليه قبل أن يعصف بهم .

خرج أتباع محمد للصلاة متسللين ، وخرج سعد مستخفيا قاصدا الشعب لينضم لرفقائه ، وليصلي معهم خلف النبي ، بعيدا عن أنظار القوم . وما كاد سعد يترك داره حتى اقتفى أثره عين من عيون قريش ، وجعل يرقبه عن كثب ، ويتبعه كظله حتى انتهى إلى الشعب وانضم إلى محمد ورفاقه ، فعاد العين وأنبأ القوم باجتماع محمد وصحبه ومكانهم ، فخرج أبو جهل وبضع نفر إلى الشعب ، واختفوا خلف صخرة ، وأرهفوا السمع ، ومدوا أبصارهم ليروا ما يفعل هؤلاء الشاقون عصا الطاعة ، الخارجون على قومهم .

قام محمد تعلوه المهابة ، وتقدم فى وقار ليؤم المسلمين ، فاصطف أصحابه خلفه ملائكة بررة مطهرة ، وكبر وكبروا ، وجهر بصلاته فرتل القرآن بصوت ندى ، فتغلغل فى أفئدة أصحابه ، ونزل بردا وسلاما عليهم . وبلغ صوته آذان المختبئين خلف الصخرة . فسرت فى أجسامهم رعدة ، وأحسوا رهبة ، وطأطئوا أبصارهم ، ولزموا الصمت ، وسيطر الهدوء . وقضيت الصلاة ، فجلس النبى يفقه أصحابه فى الدين ، فخاض فى اللات والعزى وهبل ، فعض المختبئون نواجذهم ، وفكروا أن يفاجئوا ذلك الصابئ وأنصاره ، ذلك الذى سب آلهتهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أذلة ، فأحجموا على مضض ، واستمر النبى فى أحاديثه ثم قرأ :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . سمع سعد هذه الآيات فعلم أنها إنما نزلت فيه ، فأطرق ، ثم نهض وبعض أصحابه لقضاء حاجة ، فمروا فى طريقهم بأبى جهل وصحبه ، وقال أبو جهل :

ـ ما يقول صاحبكم فى آلهتنا ؟

فقال سعد : يقول إنها أحجار صماء .

ـ خسئتم .

ـ بل خسئتم أنتم ، ما هى إلا أحجار .

ـ وما آلهتكم ؟

فقال سعد : إن إلهنا واحد لا شريك له ، خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزل من السماء ماء ، فأنبت بها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين .

ـ ما تلك الصلاة التى استحدثتم ؟

ـ لقد فرض الله علينا الصلاة ، لنذكره فى اليوم خمس مرات نشكره على ما أولانا من فضله ونعمه ، وندعوه عسى أن يرضى عنا فنفوز بجنات عرضها السموات والأرض .

ـ وما تلك الحركات التى تأتونها فى صلاتكم كأنكم قردة نشيطة ؟

وضج أبو جهل ورفقاؤه بالضحك ، وراحوا يتغامزون ويعيبون صلاة

محمد وأتباعه ، فلم يطق سعد صبرا فهجم على أحدهم ، وتلاحم أصحاب محمد ورفقاء أبى جهل ، وتناول سعد عظم بعير ، فضرب به وجه الرجل فشجه . واستمرت الملحمة ، وأصيب سعد بشج أذنه ، وارتفعت أصوات المتلاحمين . وخشى أبو جهل ورفقاؤه أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا لنجدة سعد ومن معه ، فانسلوا من المكان ؛ وعاد سعد ورفقاؤه إلى النبى ؛ فضمد له جرحه بيده ، وقال له :

— فى سبيل الله دمك يا سعد .

الفصل الثانى

أتون الاضطهاد

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .
(قرآن كريم)

أمر النبى ﷺ أن ينذر عشيرته ، وأن يجهر بدعوته ، فصدع بما أمر به ، ودعا قريشا إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأصنام ، فأعرضوا عنه ؛ فجعل يلاحقهم بدعوته ، ويعيب دينهم ، ويسب آباءهم ، ويسفه أحلامهم ، فشنفوا له وتجهموا ؛ واتفقت القبائل على أن تثب كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم لعلهم يعيدونهم إلى دين آبائهم ، فأصاب المسلمين بلاء عظيم . وأضحت مكة أتونا من جحيم يقذف حمم البغضاء والمقت ، وتندلع منه ألسنة الكراهية والحقد لمحمد وصحبه ، وذاق المسلمون صنوف الاضطهاد ، وعبوا كأس العذاب ، بلغ منهم الجهد ، ولكنهم ثبتوا على دينهم ينتظرون الفرج من الله بقلوب عامرة بالإيمان ، ممتلئة باليقين . رأى محمد تنكيل القوم بأصحابه ، فأمرهم أن يستعدوا للهجرة إلى الحبشة إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

أعد عامر بن أبى وقاص متاعه استعدادا للرحيل ، وقابل أخاه سعدا فدعاه للخروج مع الخارجين ، فرارا بدينه من الكافرين ، فقال سعد :

— لا يا عامر ، لن أرحل وأترك رسول الله . لأبقين بجواره دواما ، ولأصبرن على أذى القوم ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

— ألا تخرج يا سعد بعد ما رأيت من قومنا ؟ لقد اضطهدونا وعذبونا ومنعوا عنا الطعام ، فإن بقينا بعد ذلك أصبنا بالبوار .

— سأبقى يا عامر .

— لقد أمر النبى بالهجرة ، وسيهاجر عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، فلا تحسبن الهجرة فرارا من الجهاد ، فقد تكون دعما للدين ، وتوطيدا لأركانه ، وعاملا على نشره وانتشاره .

— لم أقل يا عامر إن الهجرة فرار من الجهاد ، فهى الجهاد ، وهى الصبر على فراق الأهل والأوطان فى سبيل الله . ولكن لن أفارق رسول الله ما دام فى عرق ينبض .

— اعلم يا سعد أن القوم قد تحجرت أفئدتهم ، وغلظت أكبادهم ، واضحوا كالضوارى المفترسة لا يتورعون عن الفتك بمن عاب دينهم ، ولا يحجمون عن افتراس من كفر بآلهتهم .

— أعلم ذلك يا عامر ، ولأبقين ، فلن يزيدنى اضطهادهم إلا يقينا .

— تذكر يا سعد ما فعل بنو مخزوم بعمار بن ياسر وبأبيه وبأمه . إنى ما اختليت بنفسى قط إلا رأيت بنى مخزوم يخرجون بهم ويجردونهم من ثيابهم إذا ما حميت الظهيرة ، فيعذبونهم برمضاء مكة . وإنى يا سعد لأراهم اليوم بوجوههم التى ارتسم عليها الألم والفزع ، وإنى لأرى نظراتهم الزائغة ، ولأسمع أناتهم وتأوهاتهم وزفراتهم وأنفاسهم المبهورة فيهتز كيانى ، وتتقطع نياط قلبى . وإنى لأرى يا سعد عدو الله أبا جهل وهو يصوب رمحه نحو أم

عمار فيصيبها فى موضع العفة فيرديها قتيلة ، وإنى لأرى الماء الساخن يصب على أبى عمار ليكفر بمحمد وإلٰه محمد . لا يا سعد لقد احتملنا الكثير ، فما علينا إلا ترك هذه البلدة الظالم أهلها .

ـــ لقد استشهد أبو عمار وأمه فى سبيل الله ، فهنيئا لهما جنات النعيم .

ـــ أراك يا سعد عازماً على البقاء ، موطدا النفس على احتمال البلاء ، فابق فى رعاية الله ، أما أنا فسأهاجر الليلة مع المهاجرين .

ـــ ارحل يا عامر ، وليكلأكم الله بعنايته ، وليبدل خوفكم أمنا ، وقلقكم دعة وطمأنينة .

وهجع الكون ، وضرب الله على أصمخة أهل مكة فناموا ، وأغرقوا فى النوم ، ولم يشعروا بخروج المسلمين فى جوف الليل البهيم متسللين من دورهم ، متوجهين إلى المكان الموعود لملاقاة النبى وتوديعه قبل الرحيل إلى الحبشة . وخرج سعد ليودع أخاه والمسلمين ، فألفى رسول الله ﷺ ينتقل بين القوم يوصيهم بالتجلد والصبر ، وقد ارتسم على وجوه الجميع العزم الصادق ، والإيمان العميق .

وراح المسلمون يتجهزون لرحلة طويلة . وأخذ سعد يساعد أخاه فى حزم أمتعته ، ويجهزه بالميرة والماء ؛ وأخيرا التأم عقد المهاجرين ، واقتربت ساعة الرحيل ، فأحس الجميع لوعة وأسى ، وفاضت شجون النساء ، وانهمر الدمع من مآقيهن ، واحتبس الحزن فى صدور الرجال ، فما شاءوا أن تترجم عيونهم عما تفيض به الجوانح ، فتحجرت الدموع ، ولكن الحزن انعكس على وجوههم برغمهم . وحان وقت الوداع ، فتعانق القوم ، والتصقت الصدور العامرة بالإيمان ، وخفقت القلوب الطافحة باليقين . وأذن بالرحيل ، ففصلت العير ، وسارت القافلة التى تحمل خيرة المسلمين ، وأول المهاجرين ،

وئيدة وئيدة ، تنطلق نحو الغيب المجهول ، تسير لا تعلم لها مصيرا ، معتمدة على الله ، محتسبة ما نالها من هوان ، وما ينتظرها من أهوال ، لله رب العالمين .

ووقف النبى وسعد بن أبى وقاص وأصحابهما يرقبون أبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم ، وآباءهم وأمهاتهم الذين اضطروا لهجرة الأوطان ، وترك الديار ، وفراق الأهل والخلان ، بقلوب شفها الوجد ، ونفوس نال منها الأسى والحزن . وابتعدت القافلة ، وراح الظلام يخيم عليها حتى غيبها فى طياته وحجبها عن أعين الأحبة المودعين ، فأحس النبى وصحبه حزنا ثقيلا ، حزن من ودع وحيده الوداع الأخير ، فطأطأوا الرءوس ، وسيطر على المكان سكون كسكون الرموس ، وبقوا لحظة لا يبدون حراكا ، شاردى الأفكار ، مبلبلى الخواطر ، غائبى القلوب ، فقد انطلقت أفئدتهم تحوم حول الأحبة المهاجرين .

* * *

انفلق عمود الصبح ، ونشرت الشمس ضياءها على الكون ، واجتمع عظماء قريش فى الكعبة كعادتهم كل يوم ، وراحوا يتسامرون ؛ وفيما هم يتجاذبون أطراف الحديث ، بلغهم خبر تسلل المسلمين ليلا إلى الحبشة فى غفلة منهم ، فطار صوابهم ، وأفلت منهم زمام أمرهم ، فأصبحت صدورهم كمرجل يغلى بالحنق والغضب ، وارتسمت آيات الكآبة على وجوههم ، وحز الحزن فى نفوسهم لانفلات الصابئين من أيديهم ، ففكروا ، وأداروا قداح الرأى بينهم فيما يفعلون بمحمد ومن بقى معه ، فقر رأيهم على أن يسوموهم سوء العذاب ، لعلهم يعيدون إلى نفوسهم هيبتها التى تزعزعت بخروج المسلمين ليلا ، وهم منهم ساخرون .

لقد وطن رؤساء قريش العزم على مضاعفة الأذى لمحمد ولمن بقى معه ،

ونسوا أن الاضطهاد سلاح المغلوب على أمره ، الموقن بافتقاره إلى الحق ، وعدم استناده إلى المنطق والعقل والبرهان .

دعا رؤساء قريش دهماء القوم وراحوا ينفثون سمومهم فيهم ويوغرون صدورهم على المسلمين ، فانطلق الدهماء كالسائمة إلى دور الصابئين ، الخارجين على القبيلة ، الشاقين عصا الطاعة ، الحاملين لواء التمرد والعصيان ، الكافرين باللات والعزى ، وراحوا يحصبون دورهم بالحجارة ، ويسومونهم سوء العذاب ، فأوذى سعد واحتمل ، وضرب وعذب ليرتد عن الدين الجديد إلى دين الآباء فتجلد وصبر ، وزاد هذا الاضطهاد نفسه صفاء كما يزيد الانصهار المعادن نقاء .

الاضطهاد مستمر ، والانضواء تحت لواء الدين الجديد مستمر ، فزاد ذلك فى حنق قريش ، فغالوا فى اضطهادهم ، ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم ، فلم ينالوا من بغيتهم شيئا ، فما وقفت الدعوة الجديدة عن السّير قدما ، وما ارتد الذين اعتنقوها إلى دين قومهم ، بل ازدادت أنصارا ووجدت لها مؤيدين وأعوانا .

فكر دهاة قريش فى سلاح جديد يحاربون به محمدا غير سلاح الاضطهاد الذى فل ، فاقترح أحدهم أن تقاطع قريش المسلمين ، فلا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، فصادف هذا هوى فى نفوس القوم ، فوافقوا عليه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، وضربوا حول شعب أبى طالب نطاقا من الحراس يمنعون المسلمين من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بهم ، وحسب القوم أن هذا هو الحال المنشود ، والسلاح البتار الذى سيقضى على المسلمين ، فباتوا والطمأنينة ترفرف عليهم والسكينة تحتل قلوبهم .

* * *

وحوصر المسلمون رجالا ونساء وأطفالا فى شعب أبى طالب ، وضيق الحصار عليهم ، فنفذ ما كان عندهم ، وخوت بطونهم ، وزاغت عيونهم ، وتفككت أوصالهم ، وأنت نساؤهم ، وبكى صغارهم ، وراحوا يصرخون يطلبون الطعام ، فكانت دموع النساء تنهمر ، وأكباد الرجال تتفتت ، وتطغى آلام النفوس على آلام الجوع . إنهم يرون أبناءهم أمام عيونهم يتضورون جوعا ، إنهم يرون فلذات أكبادهم ،مهجهم وأرواحهم ،لا يقرون ، يتلوون ويئنون ، ويبكون ويصرخون ، ويتوسلون ويتضرعون إليهم أن يمنحوهم كسرة خبز يمسكون بها رمقهم ، ويبعدون شبح الجوع الذى أقلقهم ، ولكن أنى لهم هذه الكسرات التى عزت ؟ ليتهم يستطيعون استبدال أرواحهم بكسرات تلطف من آلام أبنائهم الذين قضت قريش الظالمة الجائرة بتجويعهم وتعذيبهم بلا ذنب جنوه ، أو إثم اقترفوه .

وأقبل الليل ، وحاول سعد أن يهجع ، ولكن الجوع راح يطارده ويقض مضجعه ، فما استطاع أن ينام على الطوى ، فنهض وخرج يقطع الشعب مترنحا فألفى الناس سهدا من الجوع ، فجعل يوصيهم بالصبر ، ثم أحس بساقيه لا تقويان على حمله ، فجلس على حجر ، وعضه الجوع بأنيابه ، وأحس بغشاوة على عينيه وبالوهن يدب فى جسمه ، فمال وتناول حجرا شده على بطنه ، ولكن ذلك لم يخفف من آلام الجوع ، فأصابه دوار وخور ، فاستلقى على الأرض وتمدد ، ومر الوقت وئيدا ، ورفع سعد رأسه فلمح شجرة قريبة ، فنهض وحمل نفسه حملا حتى بلغها وأخذ يقطف أوراقها ويأكل ليسكت صراخ الجوع المروع المنبعث من جوفه .

ضيق الجوع الخناق على المسلمين ، واستبد بهم ، فأضناهم وعذبهم وأضعف أبدانهم ، وغير ألوانهم ، ولكنه لم يقو على أن يزعزع إيمانهم ، أو

يضعف نفوسهم . وحان وقت الصلاة فوقفوا جميعا خلف النبى يصلون يقيمون بالجهد صلبهم ، ويغالبون بعزائمهم الماضية ضعفهم ، وقضيت الصلاة بعد أن نال منهم التعب والنصب والمخمصة ، فاستلقوا على الأرض مبهورى الأنفاس ، زائغى العيون ، يتألمون ويتوجعون ، وزاد فى ألمهم صياح الأطفال وصراخهم . وسار الزمن متثاقلا ، وانقضى الوقت متباطئا ، فما الوقت بالنسبة إليهم ، فنهارهم عذاب ، وليلهم سهاد . واحتضر النهار ، واستوى الليل على عرشه ، وبلغ الجهد بالمسلمين غايته . ودب الضعف فى جسم سعد فراح فى غيبوبة وإعياء ، واستيقظت نفسه بعد حين ، فجعل يصارع الضعف ويغالبه ، وشدت عزيمته أزره ، فاستطاع أن يرفع رأسه وجاهد حتى استوى قاعدا ، ومد بصره فى الظلام فرأى أشباحا تتراقص ودنيا تتمايل ، فأغمض عينيه ، وثبت يديه فى الأرض خشية أن تميد به ، وهمس الريح فى أذنيه بصوت كصوت البعير ، ففتح عينيه ومد بصره ، فرأى فى الظلام شبحا يتحرك لم يستطع أن يميزه ، وأخذ الشبح يقترب منه رويدا رويدا ويتشكل شيئا فشيئا حتى صار بعيرا محملا بأحمال ، فدبت الحياة فى نفس سعد وصبت فيه القوة ، وانقلب الضعف فتوة ، فهب واقفا وهرول نحو البعير وراح يسوقه أمامه حتى بلغ النبى .

أناخ النبى البعير فألفاه يحمل طعاما طيبا ، وانتشر خبر الطعام فى الشعب انتشار الريح ، فتوافد المسلمون على النبى ، فأعطى كلا طعامه ، فأكلوا وشبعوا ، وانهزم الجوع وتقهقر ، ثم ما لبث أن جمع فلول جيشه ، وسوى كتائبه ، واستعد ليشق هجوما آخر أقسى وأوجع من هجومه الأول .

امتلأت البطون ، فأغمضت العيون ، ونام الأطفال والنساء والرجال ملء الجفون ، وبقى سعد وبضعة نفر من الرجال يتسامرون ويأخذون بأطراف

الحديث . فدار حديثهم حول البعير ، وجعلوا يتساءلون عمن ساقه إليهم ، فعلموا أن فى قريش أناسا يهتمون بهم ، ويعطفون عليهم ، ويرجون لهم النجاة فاستراحت نفوسهم ، وقرت عيونهم ، وأيقنوا أن الله يرعاهم برحمته ، ويكلأهم بعنايته ، وأنه سينصرهم ويعلى كلمته ، وينشر دينه ، ولو كره الكافرون .

نفد ما كان عند محمد من زاد ، فأعاد الجوع سيطرته ، واحتل شعب أبى طالب ، وصب على المسلمين جام غضبه ، وأنزل بهم سوط عذاب ، واقتربت الأشهر الحرم ، تلك الأشهر التى تنام فيها الخصومات ، وتحقن فيها الدماء ، فراح سعد يعد الأيام والليالى الباقية على حلولها ليتخلص المسلمون من هذا الحصار المضروب ، فضاعف ألم الانتظار آلامه ، وزاد فى عذابه ، وتلكأ الزمن فى سيره ، وأخيرا أطل قمر الشهر الجديد معلنا ابتداء الأشهر الحرم ، فتجاوبت صيحات الفرح فى جنبات الشعب ، لقد رفع الحصار عن المسلمين .

وأقبل الحجيج إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بالكعبة بيتهم المقدس ، وخرج النبى من الشعب يعرض نفسه على الحجاج ، وأخذت قريش تبذل جهدها لتمنع اتصاله بالوافدين ، فكان القرشيون ينصحون الناس بعدم الاستماع إلى محمد الساحر خشية أن يصيبهم شىء من سحره ، فكان فى التحذير دعاية وأى دعاية ، فاستمع الناس إليه ، ودخل بعضهم فيما يدعو إليه ، وباءت قريش بفشل عظيم .

* * *

ودارت عجلة الزمن سريعا ، وأوشكت الأشهر الحرم على الانصرام ، فأحس سعد حزنا شديدا ، وحاول أن يبتاع طعاما يخزنه للأيام العجاف ، أيام الشدة والضيق ، أيام الحصار الشديد والمقاطعة ، ولكنه لم يجد من يبيعه شيئا ،

وانقضت الأشهر الحرم ، واستأنف الحصار ، وعاد الجوع يبطش بالمسلمين .

استبد الجوع بهم ، فترنح سعد مع المترنحين ، وأصيب ببلاء شديد وكرب وضيق ، وبلغت روحه الحلقوم ، وتطلع إلى السماء مع المتطلعين ، يلتمس العون والفرج ، ودخل أبو طالب على النبى فقال رسول الله :

ــ يا عم إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها اسما هو « الله » إلا ثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال أبو طالب :

ــ أربك أخبرك بهذا ؟

فقال رسول الله : نعم .

فقال أبو طالب : فعلام نحبس ؟!

وخرج إلى الكعبة ليقابل أشراف قريش ولينبئهم أن رب محمد قد مزق الصحيفة الظالمة الجائرة ، فلا عهد ولا ميثاق ولا ظلم ولا قطيعة . وانتشر خبر تسليط الأرضة على الصحيفة بين المسلمين فى الشعب ، فانتشت النفوس واطمأنت القلوب ، وانتظر الناس سفارة أبى طالب انتظار الغريق للغوث ، وعاد أبو طالب فأسرع سعد إليه مع من أسرع بقلب يتنازعه الرجاء واليأس ، وتطلع إلى وجهه ليستشف ما فى نفسه ، فألفى البشر يشيع فى محياه ، فعلم كل شىء ، ولكنه أرهف أذنيه فسمع أبا طالب يهتف :

ــ مزقت الصحيفة ، ورفع الحصار .

فهتف سعد مع الهاتفين : « الله أكبر ، الله أكبر » ! وجلجل الصوت وارتفع عاليا قويا ، فزلزل جنبات مكة ، وشق الجوزاء وبلغ عنان السماء .

السهم الأول

رفع الحصار عن المسلمين ، واستأنف محمد دعوته ، وترادف العذاب على المسلمين وتتابع ، فنال سعدا قسط كبير من الأذى والاضطهاد . وأسلم أهل يثرب ، فغضبت قريش وازدادت طغيانا وظلما ، وكثر التنكيل والتعذيب ، فأمر الرسول أصحابه بالخروج إلى يثرب ، فاتفق سعد وبلال وعمار على الخروج ، فلما سجا الليل وهدأ كل شيء ، خرجوا من دورهم متسللين ، وامتطوا رواحلهم ، وانطلقوا من مكة أتون العذاب إلى يثرب مهد الهدى والرشد ، وانطلقوا تاركين خلفهم أهليهم وعشائرهم الذين تنكروا لهم ، ميممين صوب إخوان ألان الله قلوبهم ، وشرح لهم صدورهم ، انطلقوا من مكة مضحين بمصالحهم ، مهاجرين لله وفى سبيل الله ، انطلقوا مطأطئى الرءوس ، منقبضى الصدور ، وما دار بخلدهم أنهم عما قريب سيعودون إلى مكة شامخى الأنوف ، رافعى الهام ، وأن سعدا سيدخلها ظافرا منتصرا حاملا راية المهاجرين ، وأن صوت بلال الصداح سيتجاوب فى جنباتها ، وسينساب فى أجوائها رقيقا رقة النسيم ، عذابا عذوبة الماء السلسبيل ، يدعو الناس للصلاة ، فيهرع الجميع خاشعين ، ملبين داعى السلام . وانطلقوا وما يدرون ما يدخر الدهر لهم من أمن بعد خوف ، وامتلاء بعد مسبغة ، وعز بعد ذل ، ورفعة وسؤدد وسلطان .

وتتابعت هجرة المسلمين ، وأقبل على المدينة النبى وأبو بكر ، فتصرم عهد احتمال أذى قريش ، والصبر على مكروهها ، وانقضى زمن التنكيل والتعذيب ، ولاحت فى الأفق القريب تباشير عهد جديد ، عهد مطاولة

المسلمين للكافرين ، عهد القوة والفتوة ، عهد الكفاح والنضال لدعم الدين الجديد ونشر سلطانه فى الخافقين .

وأقبل الليل ونشر رداءه الأسود على الكون ، وتلألأت فى صفحته الداكنة نجوم خافتة ، فبدا كزنجية تحلت بجمان ، وعاد الناس إلى دورهم ، وبقى النبى وحده ، وحاول النوم ولكنه لم يهجع ، فدعا عائشة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث ، قال النبى فيما قال :

ـــ ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة .

واستأنفا حديثهما ، وبينما هما يتحدثان إذ سمعا خشخشة سلاح فقال النبى :

ـــ من هذا ؟

ـــ سعد بن أبى وقاص .

ـــ وما جاء بك ؟

ـــ وقع فى نفسى خوف على رسول الله فجئت أحرسه .

فدعا له النبى ، واتجه إلى مضجعه ونام ملء جفونه ، ولبث سعد الليل جميعه يحرس رسول الله .

استقر المهاجرون فى يثرب ، واستتب الإسلام بها ، وقويت شوكته ، فرأى النبى أن يبعث السرايا إلى الحجاز ليتنسم أخبار قريش ، وليعلم ما تخبئه له من مفاجأة ليكون على بينة من أمرها حتى لا تدهمه وهو عنها غافل ، فبعث عبيدة ابن الحرث فى ثمانين راكبا من المهاجرين ، فخرجت السرية وبها سعد بن أبى وقاص ، وراحت تجد فى السير ، وتتابع عليها الليل والنهار حتى بلغت ماء الحجاز بأسفل ثنية المرة ، ولمح سعد جمعا غفيرا من قريش عند الماء فتذكر إخراجهم له من داره ، وإبعادهم إياه عن وطنه ، فجرى الدم حارا فى عروقه ، وأحس رغبة فى قتالهم ، فوضع سهما فى قوسه ورمى به ، فانطلق أول سهم فى

الإسلام يشق الفضاء ، منذرا الكفار بغارات شعواء وحرب مذكار ، ووضع سهما آخر فى قوسه وتأهب لإطلاقه ، ولكنه لمح القوم ينصرفون لا يبغون قتالا ولا نزالا ، فوضع سهمه ، ثم قفل عائدا إلى يثرب مع السرية بعد أن أطلق السهم الأول ، الذى ستتبعه سهام وسهام ، قبل أن ترفرف راية الإسلام على العالمين .

الأيام تمر ، وسواعد المسلمين فى يثرب تشتد ، وتاق النبى إلى معرفة ما يدور فى مكة ، فدعا عبد الله بن جحش وبعثه فى سرية مع ثمانية رهط من المهاجرين ، وكان سعد منهم . وكتب لعبد الله كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وانطلقت السرية صوب الحجاز ، ولما انصرم الأجل المحدود فض عبد الله الكتاب وقرأه ، ولما فرغ منه قال :

ـــ سمعا وطاعة .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

ـــ قد أمرنى رسول الله أن أمضى إلى نخلة (موضع) ، أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

انطلق عبد الله ورهط المهاجرين ، وأغذوا فى السير حتى بلغوا نجران فنزلوا بها ليستريحوا ، ثم استعد عبد الله بن جحش لاستئناف زحفه ، فتفقد رجاله فلم يجد سعدا ولا عتبة بن ربيعة فراح يبحث عنهما فلم يجد لهما أثرا ، وأخيرا لم يجد بدا من الانطلاق إلى ما أمرهم به رسول الله تاركا سعدا وعتبة ، فأمر رجاله بالسير إلى نخلة ، ولما بلغوها نزلوا بها فمرت بهم عير تحمل تجارة لقريش ، ففكروا فى مهاجمتها ، ولكنهم تذكروا أنهم فى الأشهر الحرم ،

فأحجم بعضهم ، ورأى بعضهم أن لا بد من الهجوم ، وارتفع الجدال بينهم ، قال أحدهم :

ــ لقد آذونا وعذبونا وحاولوا فتنتنا عن ديننا ولم يراعوا لنا حرمة ، فلم نرعى لهم حرمة ؟

وقال آخر :

ــ والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ويمتنعن عليكم .

ووافق الجميع على القتال ، فرمى أحدهم سهما فأردى قرشيا قتيلا ، وهجم المسلمون على القافلة ، وأسروا رجلين ، وغنموا ما تحمل العير ، ثم رجعوا إلى يثرب ولم يعد معهم سعد ولا عتبة ، فراح القوم يسألونهم عنهم ؟ فقالوا : لقد اختفيا عند نجران ولم نعثر لهما على أثر ، ولما رأى رسول الله الأسيرين والغنائم قال :

ــ ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم .

ورفض أن يأخذ نصيبه من الغنائم ، ثم نزل القرآن يبرر عمل السرية ، وبعثت قريش فى فداء الأسيرين ، فقال رسول الله :

ــ لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ــ سعد وعتبة ــ فإنا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم .

وأقبل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن ربيعة ، فانجفل الناس إليهما ، وراحوا يسألونهم عما حدث لهما فقال سعد :

ــ لما بلغنا نجران ضل بعير لى ولعتبة ، فخرجنا نتعقبه ، فعثرت قريش علينا فأسرتنا ، فلما اطمأن الرسول على صاحبيه أطلق سراح الأسيرين .

الفصل الثالث

يوم عظيم

﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾

(قرآن كريم)

سل سيف الفجر من غمد الغلس ، وارتفع صياح الديكة تهتك غلالة السكون ، ثم هدأ كل شيء ، واعتلى بلال مسجد الرسول ، وأرسل صوته الندى الحنون يدعو الناس إلى صلاة الفجر ، وداعب صوته العذب أذن سعد فهب من نومه وتوضأ ، ثم خرج إلى المسجد فلفحته نسمة عليلة أنعشته ، وراح يقطع الطريق بين داره والمسجد بخطا واسعة وهو مرهف السمع لصوت بلال الصداح .

وقضيت الصلاة ، وجلس سعد إلى النبي ، وأخذ بأطراف الحديث فى دعة وهدوء حتى تنفس الصبح ، وبزغت الشمس ، وأقبل رجل على الرسول وقال :

ــ إن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش عظيمة .

فأطرق رسول الله هنيهة ، ونظر سعد إليه فتيقن من أنه قد عقد العزم على أمر ذى بال ، ثم رفع النبى وجهه ، ودعا المسلمين إليه وقال :

ــ هذه عير قريش فيها أموالكم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

أضحت يثرب فى حركة دائمة ، وأخذ الناس يتوافدون فى عدة القتال ،

وأقبل سعد بن أبي وقاص على بعيره ، لابسا جبة من صوف ، وارتسم العزم الصادق على وجهه ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين اضطهدوه وآذوه وعذبوه وأخرجوه من دياره ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين فرقوا بينه وبين أهله وخلانه . واكتمل عقد المسلمين ، فأمرهم الرسول بالمسير على بركة الله ، فانطلقوا وكانوا يتعقبون بعيرهم ، وانطوت الأرض تحت أرجلهم . وأخيرا نزلوا بالقرب من ماء بدر ، وقد بلغ أبا سفيان أن محمدا قد استنفر أصحابه له ، فأرسل إلى مكة يستنفر قريشا إلى أموالهم ، وبلغ النبى مسير قريش ، فاستشار الناس فقالوا له :

ـــ امض لما أراك الله فنحن معك .

وعسعس الليل ، ونشر ألويته السود على المكان ، فبعث رسول الله على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فانطلقوا تحت جنح الليل حتى أمسوا على قيد خطوات من ماء بدر ، فهمس سعد :

ـــ انظرا هذان ساقيان لأبى سفيان .

فتمتم الزبير :

ـــ لنأت بهما رسول الله .

فانسلوا من مكانهم ، وساروا على حذر ، ثم قبضوا على الساقيين وعادوا بهما إلى النبى ، فوجدوه يصلى ، فسألهما سعد :

ـــ سقاة من أنتما ؟

ـــ نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء .

فقال على : كذبتما .

فقالا : لا ، لم نكذبكم القول .

فقال سعد : أنتما ساقيان لأبى سفيان .

فقال الزبير : الصدق الصدق ، وإلا ضربناكما حتى تعترفا .

فقالا : نحن سقاة قريش .

فضربوهما وأوجعوهما ، فصاح الساقيان :

ـــ نحن سقاة أبى سفيان ، نحن سقاة أبى سفيان .

فتركوهما ، وأيقنوا أن عير قريش وتجارتهم باتت فى قبضة أيديهم .

وأتم رسول الله الصلاة ، فالتفت إلى سعد وعلى والزبير وقال :

ـــ إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش .

وأقبل رسول الله على الناس وقال :

ـــ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادكم .

ـــ أتى المسلمون أدنى ماء من القوم ، وبنوا حوضا على الماء ، ملئوه ليشربوا ولا يشرب الكافرون ، وبنوا عريشا للنبى ، واصطف المسلمون ، ووقف سعد فى الصف يتحفز للقتال ، ولمح قريشا مقبلة فجرى الدم حارا فى عروقه ، ووقف كأسد كاسر يتحفز للانقضاض على غريمه ، وانتظر الإذن بالقتال بصبر نافد : إنه يتوقد لقتال أعداء الله وأعدائه . وصك أذن سعد قول النبى :

ـــ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى .

فاتقد حمية وحماسة ، وهمت قريش بالزحف ، فأمر النبى المسلمين أن يمنعوهم بالنبل من الاقتراب منهم ، فأخذ سعد يسدد سهامه الفتاكة ، ودخل النبى وأبو بكر العريش ، وراح المتحاربون يتراشقون بالسهام ، ثم خرج النبى يحرض القوم ، قال :



هجم سعد على قريش كالأسد عاديا

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

فاستل سعد سيفه ، وانتظر الإذن بالهجوم لينقض على الكافرين ، فإما نصر وعز ، وإما استشهاد فى سبيل الله وجنات عرضها السموات والأرض .

وهتف رسول الله : شدوا .

فصاح المسلمون : أحد .. أحد .

وهجموا على الكافرين كالليوث الكواسر ، وتصافت السيوف ، وتبودلت الضربات ، وفغرت المنايا أفواهها ، وهجم سعد على قريش كالأسد عاديا ، وأطل الموت من سيفه ، وراح يهزه ويضرب الكفار ، صائلا جائلا . ووقع بصره على النبى وسط المعمعة شاهرا سيفه ، ضاربا به المشركين ، فازدادت حماسته ، وكر على الأعداء وهو يهتف : « أحد .. أحد » .

وثار النقع ، واختلط المسلمون بالكافرين ، وحمى وطيس القتال ، وراح صناديد قريش يسقطون صرعى تحت ضربات أبطال المسلمين ، وحاول الباقون النجاة من تلك السيوف البتارة ، فولوا الأدبار ؛ فكانت الهزيمة ، وتعقبهم المسلمون ، وأسروا ناسا كثيرين ، وأسر سعد أسيرين ، وانجلت أول معركة فى الإسلام عن انتصار باهر عظيم ، ثم راح المسلمون يجمعون الغنائم فرحين مستبشرين ، وعاد سعد بأسيريه إلى حيث كان الرسول الأمين .

عاد المسلمون إلى يثرب ظافرين منتصرين ، وكانت أنباء الانتصار المبين قد بلغت من فى المدينة ، فخرجوا فرحين مهللين مكبرين يهنئون إخوانهم بنصر الله ، ثم انصرف سعد إلى داره وخلع جبته الصوف ، وطواها برفق ووضعها فى مكان أمين ، تخليدا لذكرى يوم عظيم .

الفصل الرابع .

الصــابرون

(ارم أيها الغلام فداك أبى وأمى !) .

(حديث شريف)

انطلق سعد إلى المسجد ، وفى الطريق بلغه خروج قريش لقتال المسلمين ، ونزولهم بالقرب من أحد ، فأسرع ليرى ما يفعل الرسول ، وما إن دلف من باب المسجد حتى رأى النبي والناس حوله ، فاتجه نحوهم.فسمع النبى يقول :

ــ إنى رأيت والله خيراً ، رأيت بقرا لى يذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ، فأما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل .

فطأطأ الحاضرون الرءوس ، وسيطر السكون برهة إلى أن قال سعد :

ــ نزلت قريش بالقرب منا ، فماذا نحن فاعلون ؟

فقال النبى : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا . فإن أقاموا ، أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا ، قاتلناهم فيها .

فصاح صائح : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .

فقال عبد الله بن أبى : « يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه .

فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس ، وأن دخلوا ، قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فصاح آخر : لنخرج إليهم ، ولنقاتلهم ولا نقعد عن الجهاد .

وصاح ثالث : لو دخلوا علينا وأصابوا منا ، لم تقم لنا بعدها قائمة أبدا . الخروج الخروج !

وارتفعت الأصوات من كل جانب تحبذ الخروج للقتال ، فدخل النبى داره ، والتفت سعد إلى القوم وقال :

ـــ استكرهتم رسول الله ، ولم يكن لكم ذلك .

فندم الناس ، ولما خرج النبى لا بسا لأمته ، انجلفوا إليه وقالوا :

ـــ يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد .

فقال النبى : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

تجهز سعد للقتال . فتدحج بالسلاح ، وخرج مع المسلمين للقاء قريش ، وانطلقوا حتى نزلوا الشعب من أحد ، فجعل النبى ظهره وعسكره إلى أحد ، وأجلس جيشا من الرماة ، وأمر عليهم عبيد الله بن جبير وقال له :

ـــ لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا .

واصطف الجيشان ، وبرز سباع من بين صفوف قريش ، وصاح :

ـــ هل من مبارز ؟

فخرج إليه حمزة وقال :

ـــ يا سباع ؛ أتحاد الله ورسوله ﷺ ؟

ثم شد عليه وضربه ضربة فأرداه قتيلا ، وبرز ابن أبى طلحة من صفوف

المشركين ، وهو صنديد من صناديد قريش وصاح :

— يا أبا القاسم من يبارز ؟

فلم يخرج له أحد ، فصاح ثانية : يا أبا القاسم من يبارز ؟

فلم يخرج له أحد من المسلمين ، فصاح : يا أصحاب محمد ، زعمتم أن قتلاكم فى الجنة ، وأن قتلانا فى النار ، كذبتم واللات ، لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم .

فخرج إليه على بن أبى طالب . وتبادلا الضربات ، وشد عليه على كأسد كاسر ، فأحس ابن أبى طلحة بانهزامه ، وأن عليا سيقتله فاستقبله بعورته ، فتركه على وعاد إلى صفوف المسلمين .

وأمر رسول الله أصحابه أن يشدوا ، فهتفوا : « أمت .. أمت » واندفعوا كالبحر الهائج . والتقى الجمعان ، وانقض سعد على ابن أبى طلحة وكان يحمل لواء المشركين انقضاض الصاعقة وعاجله بضربة من سيفه فبترت يده ، فحمل ابن أبى طلحة اللواء بيده الأخرى ، فضربه سعد ضربة ثانية أطاحت بها ، فضم ابن أبى طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره . فسدد سعد إليه ضربة هائلة سقط بعدها ابن أبى طلحة يخبط فى دمه . وسقط لواء المشركين على الأرض ، وراح سعد يحسو الكفار بسيفه ويهتف : « أمت .. أمت » وسمع أنينا خلفه ، فالتفت فرأى حمزة قد أصيب بحربة خرجت من بين وركيه ، فثارت ثائرته ، وكر على قريش عازما على أن يستأصلهم قتلا ، وراح المسلمون يعملون سيوفهم فيهم حتى انهزم الكفار ، وابتدأ نساؤهم يشددن فى الجبل ، رافعات عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، وأسرع المسلمون يجمعون الغنائم ، فلما لمح الرماة ذلك تصايحوا :

— الغنيمة الغنيمة .

فقال عبد الله بن جبير :

— عهد إلى ﷺ ألا تبرحوا .

— لقد انهزم القوم ، وابتدأ إخواننا فى جمع الغنائم .

— لا تبرحوا .

فأبوا وانصرفوا ليجمعوا الغنيمة ، وخلوا ظهور المسلمين ، فظهرت خيل الكافرين على الجبل خلف المسلمين ، فالتفت المسلمون نحو الصوت مذعورين فرأوا خيل قريش تنقض عليهم كصقور كواسر ، فوقع بينهم هرج شديد ، وراحوا يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت ، وسقط المسلمون صرعى ، وراح سعد يقاتل وهو يخترق الصفوف باحثا عن النبى ليذب عنه حتى النفس الأخير ، فوجده قد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، فوقف بجواره ، وراح يسدد سهامه إلى الكافرين ، فالتفت إليه النبى ، وقال :

— ارم أيها الفتى الحزور فداك أبى وأمى .

فجعل سعد يرمى سهامه ، حتى كسرت القوس فى يده ، فناوله النبى قوسا أخرى وقال :

— اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته .

وأقبل طلحة بن عبيد الله ،وانضم إلى سعد فى الذود عن الرسول ، فوقف بين يديه مجوبا (مترسا) عليه بحجفة له ، وكان طلحة راميا شديد النزع ، ومر رجل بجعبة من النبل فقال له النبى :

— انثرها لطلحة .

وأقبل أبو دجانة ، وانضم إلى النبى وصحبه ، ولما رأى كثرة النبل المصوب إلى الرسول جعل من نفسه ترسا يقى النبى ببدنه ، فأخذ النبل يرشق فى ظهره ، وهو منحن على الرسول حتى أصبح كالقنفد وهو لا يبارح مكانه .

وراح سعد وطلحة يدافعان عن النبى دفاع الأبطال الصناديد ، وأشرف النبى ينظر إلى القوم ، فقال له طلحة :

ـــ بأبى وأمى ، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك .

وأحس سعد بالعطش . فالتفت فرأى عائشة تحمل قربة على متنها تسقى القوم فأشار إليها فأقبلت وأفرغتها فى فيه ، ثم رجعت تملأها ، واستأنف سعد قتاله فناوله النبى سهما ما له نصل ، فأخذه سعد والتفت إلى النبى ، فقال له النبى :

ـــ ارم به .

فوضعه فى قوسه وأطلقه ، وجعل يطلق السهام حتى بلغ ما أطلقه ألف سهم .

ولمحت أم عمارة انهزام المسلمين وثبات سعد وطلحة مع النبى ، فألقت بالقربة التى كانت تحملها تسقى منها القوم ، وتناولت سيفا ، وانحازت إلى رسول الله تذب عنه مع سعد وطلحة ، وترمى عن القوس ، وأقبل رجل من قريش يصيح :

ـــ دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له ، فضربها بسيفه فخلصت الجراح إليها ، فلم يثنها ذلك ، فهجمت عليه وضربته ضربتين فأدبر . وصرخ صارخ : « ألا إن محمدا قد قتل ..فقعد المسلمون عن القتال ، وهدأت المعركة ، وعثر كعب بن مالك على النبى فصاح :

ـــ يا معشر المسلمين ، أبشروا .. هذا رسول الله .

فأشار له رسول الله أن أنصت ، وأقبل عمر ، وأبو بكر ، وعلى ، والزبير ، فرأوا رسول الله ، ففرحوا بلقائه ، ونهضوا به ونهض معهم نحو الشعب ، وسار

سعد مع النبى خائر القوى يتفصد العرق منه ، يكاد يسقط من شدة الإعياء .

وصاح أبو سفيان :

ـــ أفى القوم محمد ؟

فقال النبى : لا تجيبوه .

ـــ أفى القوم ابن أبى قحافة ؟

ـــ لا تجيبوه .

ـــ أفى القوم ابن الخطاب ؟

فلم يبلغ أذنيه إلا صدى صوته ، فقال :

ـــ إن هؤلاء قتلوا ، لو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال :

ـــ كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك .

فصاح أبو سفيان :

ـــ أعل هبل .

فقال النبى ﷺ :

ـــ أجيبوه .

ـــ وما نقول ؟

قولوا : « الله أعلى وأجل » .

قال أبو سفيان :

ـــ لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبى :

ـــ أجيبوه .

ـــ ما نقول ؟

ـــ قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

فقال أبو سفيان :

ـــ يوم بيوم بدر والحرب سجال .

وانصرف المشركون ، وبقى المسلمون فى الشعب ، وأذن لصلاة الظهر ، فصلى النبى قاعدا من الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعودا ، ولما قضيت الصلاة عاد سعد إلى يثرب وفى نفسه حزن ثقيل لما أصابهم من كرب وبلاء . وفى صبيحة اليوم التالى ، بددت الشمس فحمة الدجى ، وبهرت أنوار السرج ، وارتفع صوت المنادى يدعو المسلمين للخروج فى أثر قريش ، فخرج سعد وانضم إلى إخوانه وانطلقوا حتى نزلوا حمراء الأسد ثلاثة أيام : ولم يلقوا كيدا فقفلوا عائدين إلى يثرب . واستمر سعد حزينا مغيظا لانتصار قريش إلى أن دخل المسجد يوما وسمع النبى يرتل :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

فأحس سعد كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن صدره وشعر بالراحة تشيع فى نفسه ، وبالطمأنينة تسكن قلبه .

الفصل الخامس

عهد جديد

(اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب) .

(حديث شريف)

دارت عجلة الزمن وقويت شوكة المسلمين ، ولم تخضد شوكة قريش ، واستمرت العداوة بين الفريقين شديدة لا تلين لها قناة ، فكان القرشيون يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وكان المسلمون يتتبعون حركات أعدائهم خشية أن يفاجئوهم وينالوا منهم ما يبغون ، وفي يوم قابل سعد جابر بن عبد الله فى الطريق ، فسلم عليه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فقال جابر :

— أبلغك ما فعله اليهود ؟

— وما فعلوه ؟

— خرج سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضر ، ونفر من بنى وائل ، حتى قدموا على قريش فى مكة فدعوهم إلى حربنا .

— من أبلغك هذا ؟

— ترامت الأنباء إلى هنا .

— وما فعلت قريش ؟

ـــ قال اليهود للقرشيين : إنا سنكون معكم على المسلمين حتى نستأصلهم .

فقالت قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

ـــ بم أجابوهم ؟

ـــ قالوا لهم : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق .

ـــ أوَ قالوا ذلك ؟! إنهم لفى ضلال مبين ، ما كنت أحسب أن الحسد يبلغ بهم هذا ، أيقولون إن الذين يعبدون الأصنام أهدى من الذين آمنوا سبيلا ؟

ـــ استجابت قريش إلى هذه الدعوة وخرجت يقودها أبو سفيان .

ـــ إذن سنقاتل قريشاً ونقتص ليوم أحد .

ـــ مهلا . ليت الأمر اقتصر على قريش .

ـــ وما هنالك ؟

ـــ لم يكتفوا بتأليب قريش علينا ، بل جاءوا غطفان كذلك ودعوهم إلى حربنا .

فطأطأ سعد رأسه ، وراح يفكر برهة ، ثم تمتم :

ـــ خطب نازل .

وانطلقا حتى إذا أتيا رسول الله وأصحابه ألفيا صمتا شاملا ، وأبصارا شاردة ، لقد كانوا يفكرون فيما يفعلون وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكالبوهم من كل جانب ، وقال أحد المسلمين :

ـــ فلنواجههم ولنقاتلهم .

فقال آخر :

ـــ ليس هذا بالرأى ، كيف نواجه العرب ونحن قلة ؟ لن نستطيع لهم صدا .

ـــ وماذا نفعل إذن ؟

فأطرق الجميع يفكرون فيما يفعلون ، ثم رفع سلمان الفارسى رأسه وقال :

ـــ أرى يا رسول الله أن نضرب على المدينة خندقا ، فيصبح بيننا وبين المشركين فلا يستطيعون اقتحامه .

فرفع المسلمون رءوسهم ، وانبسطت أساريرهم ، وسرى الأمل الدفىء فى صدورهم ، فقد هداهم الله إلى الرأى السديد ، وألهم سلمان ما ألهم ليحميهم من عدو الله وعدوهم .

ونهض النبى خفيفاً ، وتناول فأساً وضرب به لحفر الخندق ، فراح المسلمون يقتدون به ، وتناول سعد فأسا ومسحاة ، وراح يضرب الأرض بقوة ، ويحمل التراب على عاتقه ، وتفصد العرق منه على الرغم من برودة الجو ، فقد كان الوقت شتاء . وتصرم النهار ، وأحس بعض المسلمين التعب يدب فى أوصالهم ، والجوع يعض بطونهم ، فراحوا يختلقون الأعذار للفرار ، وبقى سعد مع النبى لا يحفل بالتعب ولا يأبه للجوع ، فقد وجد فى طاعة الرسول راحة لنفسه ، وخوى بطنه فتناول حجرا وشده عليه ، ومالت الشمس نحو الأفق ، ونال النصب والكلال من الرجال فتراخوا فى عملهم ، وبلغت القلوب الحناجر ، فأخذ النبى يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب :

لا هم لولا أنت ما اهتدينـــــا ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا
فأنزلـــن سكينــــة علينـــا وثــبت الأقــدام إن لاقينـــا
والمشركـــون قد بغـــوا علينـــا وإن أرادوا فتنــــة أبينـــــا

فدب النشاط فى المسلمين ، وراحوا يعملون حتى توارت الشمس فى الأفق .

وبزغت شمس اليوم التالى فاتجه سعد إلى الخندق نشيطا واستأنف عمله ،



نحن الذيـن بايعـوا محمـدا على الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

فأخذ يضرب بفأسه ويحمل التراب وينقل الحجارة ، وسمع النبى يرتجز :

لا هم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فراح يردد مع المسلمين خلف النبى :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وراح المسلمون يعملون فى حفر الخندق ، وجلس النبى ﷺ ، تحت قبة تركية ، فدخل عليه سلمان وهو يتصبب عرقا وقال :

— يا رسول الله ! بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة ، فكسرت حديدنا ، وشقت علينا حتى ما نحيك فيها قليلا أو كثيرا ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله مع سلمان فى الخندق ، فأخذ المعول منه ، فضرب الصخرة ضربة صدعتها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة حتى لكأن مصباحا أضاء فى جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانية فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت كالأولى ، فكبر رسول الله تكبيرة فتح ، وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة فكسرها ، وبرقت منها برقة شديدة ، فكبر النبى ﷺ تكبيرة فتح ، ثم كبر المسلمون ، ثم أخذ بيد سلمان فرقى ، فقال سلمان :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط .

فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال :

— هل رأيتم ما يقول سلمان ؟

— نعم يا رسول الله ، بأبينا أنت وأمنا ، رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج ، فرأيناك تكبر فنكبر ، ولا نرى شيئا غير ذلك .

— صدقتم ، ضربت ضربتى الأولى ، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن

كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثانية ، فبرق الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر .

فاستبشر المسلمون وقالوا :

ــ الحمد لله ، موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر .

وقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض :

ــ ألا تعجبون ؟ يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر فى يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ، ولا تستطيعون أن تبرزوا ، وما وعدنا رسول الله إلا غرورا !

ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لأيقنوا أن ما وعدهم الله ورسوله حق وصدق ، وأن قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ستفتح قريبا ، وسيفتحها واحد منهم يحمل التراب على عاتقه غير متبرم ، وما زاده قول الرسول إلا إيمانا وتسليما .

واستمر العمل فى الخندق ، ولما تم حفره هدأت النفوس واطمأنت القلوب ، وعسكر المسلمون فيه ينتظرون لقاء عدوهم بجنان ثابت .

وأقبلت جموع العرب لقتال المسلمين واستئصال شأفتهم ، ولكنهم لما رأوا ما أعده المسلمون للقائهم أحسوا خيبة أمل . وأصبحوا فى كمد ، فما دار بخلدهم أن يفعل المسلمون هذا ، وما كان حفر الخنادق من أساليبهم فى القتال .

وحاول الكفار اجتياز الخندق مرارا ، ولكن سهام المسلمين التى كانت

تصوب إليهم كانت تردهم على أعقابهم ، فلم يبق أمامهم إلا أن يضربوا الحصار على المدينة .

استمر الحصار ، وكان صناديد المسلمين يخرجون للمبارزة والقتال ثم يعودون ، وقد خرج سعد مرارا ، وبارز وطعن وقتل بين هتاف المسلمين المتصاعد : ﴿ حم ، لا ينصرون ﴾ .

وتصرم شهر ولم ينشب حرب بين الفريقين إلا رميا بالنبل والحصار ، وفى يوم دعا رسول الله على الأحزاب :

ـــ اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

الليل شديد البرد ، والريح تصفر ، والمسلمون يخيمون بالخندق ، يدخلون خيامهم ، ثم تشتد الرياح فتصير صرصرا عاتية ، تقتلع خيام الكفار ، وتطرح آنيتهم ، فتدب الفرضى فى معسكرهم ، ويحاولون الالتجاء إلى مأوى يحميهم من غضب السماء ، ولكن يعز المأوى ، ويشتد الكرب فتضعف نفوسهم ، وتخور عزائمهم ، ويتمنون أن تكف الرياح عن زئيرها ، وأن تلطف من ثورتها ليعودوا إلى مكة ، فلقد تحالفت الطبيعة مع المسلمين عليهم ، فماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ حصار لا طائل تحته ، ورياح لا قدرة لهم على الصمود فى وجهها ، فليعودوا ، وإن كان الفشل فى ركابهم .

وهدأت الريح ، وهدأ معسكر الكافرين كقبر مهجور . فراح المسلمون يتساءلون : ما دهى القوم ، وما بال معسكرهم يخيم عليه السكون ؟ وقال النبى ﷺ :

ـــ من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال الزبير بن العوام :

ــ أنا .

وخرج الزبير إلى المعسكر المهجور ، فلم يجد إلا قدورا انكفأت ، وفوضى ضاربة أطنابها ، وهدوءاً يلف كل شيء ، فعاد إلى إخوانه وهتف :

ــ رحلوا ... رحلوا .

فشاع الفرح والسرور ، وهتف سعد مع الهاتفين :

ــ لا إلٰه إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده .

ومد سعد بصره إلى الأفق البعيد ، كأنما يحاول أن يمزق ببصره حجب الغيب ليرى ما يخبئه لهم من أحداث ، فاقترب النبي منه وقال :

ــ الآن نغزوهم ولا يغزوننا ؛ نحن نسير إليهم .

الفصل السادس

رجل من أهل الجنة

(يا سعد إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك) .

(حديث شريف)

شهد سعد المشاهد كلها مع النبى ، فكان البطل الذى لا يشق له غبار ، لا يخشى عدواً ولا يهاب موتا ، واشتد ساعد المسلمين ، وتوطد سلطانهم ، وانتشر دينهم ، فباتت قريش تخشى بأسهم ، وراحت تخطب ودهم ، لتدفع خطرهم ، فعقدت معهم صلح الحديبية ، ولكنها ما لبثت أن فجرت فى عهدها ، فما كان من النبى إلا أن أعد جيشا لفتح مكة ، ودفع إلى سعد إحدى رايات المهاجرين الثلاث ، وتم الفتح المبين ، والنصر العظيم ، فدخل سعد مكة فى رابعة النهار ، رافع الرأس ، منشرح الصدر ، مطمئن الفؤاد بعد أن خرج منها طريدا ، معذّباً ، مطأطئ الرأس ، دامع العين ، يتستر بالليل .

دخل سعد مكة الوطن الحبيب ، مهوى الفؤاد ، فأسرع إلى داره ليضم إلى صدره أهله وخلانه ، ليطفئ نار الشوق ، وليمتع العين برؤية الأحبة الذين طال البعد عنهم .

فرح المسلمون المهاجرون لعودتهم إلى ديارهم ، وفرح النبى بفتح الله المبين وبتحطيم الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة ، وأوجس الأنصار خيفة أن

يتركهم الرسول ويبقى بين أهله وعشيرته ، وراحوا يتهامسون ويسأل بعضهم بعضا : « أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده لمقيم بها ؟ » ، وبلغ هذا التهامس رسول الله ، فجَمعهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وعلم سعد أن رسول الله ﷺ سيعود إلى يثرب ، فلم يفكر لحظة فى ترك النبى والبقاء فى داره بين أهله وأصحابه ، بل عقد العزم على مصاحبته ، فما مكة ! وما الأهل والصحاب ، إن كان بعيداً عن النبى الحبيب ؟!

وعاد المهاجرون إلى يثرب واستأنفوا حياتهم ، وفى يوم جلس النبى وأنس ابن مالك ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأناس آخرون ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وأقبل سعد فانضم إليهم ، ثم قام النبى والتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال :

ـــ إنى غاضبت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاث ليال ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى يحل يمينى فعلت .

فقال سعد :

ـــ على الرحب والسعة .

واستأنفوا حديثهم حتى خيم الظلام ، فصحب سعد عبد الله وعادا إلى الدار ، ونام سعد وبات عبد الله معه ، ولكن لم تغمض له عين ، وراح يرقب سعدا ويعد حركاته وسكناته ، فألفاه يغط فى نومه ، لا يقوم ليله ، ولكنه كان إذا ما تقلب فى فراشه ذكر الله وكبر ، وانقضى الليل ، وقام سعد مع الفجر ، وأسبغ الوضوء ثم صلى المكتوبة وأصبح مفطرا ، فاستأذن عبد الله وانصرف وهو يعجب من أمر سعد . وفى الليلة الثانية نام عبد الله معه واستأنف مراقبته ، فلم يجده يفعل أكثر مما فعل فى الليلة الأولى ، فانصرف وقد ازداد عجبه ،

ومرت الليلة الثالثة كما مرت سابقتاها ، فالتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال له :

ـــ لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ، ولكنى سمعت رسول الله قال ثلاث مرات فى مجالس ثلاثة : « يطلع عليكم رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت أولئك المرات الثلاث ؛ فأردت أن آوى إليك حتى أنظر ما عملك ، فأقتدى بك لأنال ما نلت ، فلم أرك تعمل كثير عمل .. ما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ؟

فقال سعد :

ـــ ما هو إلا الذى رأيت .

فأدار عبد الله ظهره ، وهم بالانصراف ، وهو يحتقر عمل سعد فدعا به حين ولى وقال :

ـــ ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى سوءا لأحد من المسلمين ، ولا أنوى له شرا ، ولا أقوله .

ـــ هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا أطيق .

وخرج سعد وعبد الله إلى المسجد فألفيا رسول الله وبعض أصحابه جالسين فجلسا ، وأخذ النبى يذكرهم بيوم الوعيد ، ويرققهم ، فبان على سعد التأثر ، واستمر النبى فى حديثه ، فترقرق الدمع فى عينى سعد ، ثم بكى وأكثر البكاء ، وقال بصوت متهدج :

ـــ ليتنى مت .

فقال رسول الله ﷺ :

ـــ « يا سعد إن كنت للجنة خلقت ، فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » .

الفصل السابع

الحـج

(إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس).

(حديث شريف)

أذن النبى بالحج ، فأقبلت الوفود على المدينة أفواجا من كل فج عميق ، وضربت الخيام حول المدينة لمائة ألف أو يريدون ينتظرون الانطلاق مع الرسول إلى بيت الله العتيق ، ليؤدوا مناسك الحج كاملة . وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، تجهز الناس للرحيل ، وأقبل سعد ابن أبى وقاص وزوجته وابنته ، وراحوا ينتظرون مع الناس حضور النبى ، واستوت الشمس فى كبد السماء ، فأقبل الرسول الكريم ومعه نساؤه جميعا كل فى محفتها ، ثم أذن بلال فأم النبى القوم وصلى الظهر أربعا ، ولما قضيت الصلاة ركب ناقته القصواء وانطلق ، فانطلق الناس خلفه ، وتلفت سعد حوله فرأى جمعا زاخراً ملأ عينه ، وغمر قلبه ، وخلب فكره ، وبهر لبه ، فتذكر يوم خرجوا مضطهدين متسللين ووجوههم بواسر ، ورأى كيف يتجهون اليوم إلى مكة عزيزى الجانب ، باسمى الثغور ، مشرق الوجوه ، فشكر ربه ، الذى أيدهم ونصرهم ، فصدق وعده .

وبلغ الحجيج وادى العقيق فنزلوا بذى الحليفة ، وصلوا بها العصر راكعين

خلف النبي ، ثم راحوا يتأهبون لقضاء ليلتهم بها ، وانقضى الليل ، ولاحت فى الأفق البعيد تباشير الصباح ، فنهض سعد واتجه إلى النبي فسمعه يقول:أتانى الليلة آت من ربى ، فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة وحج .

وقضيت الصلاة ، وركب النبي حتى استوت به راحلته على البيداء ، فالتفت إلى الناس وقال :

ـــ جاءنى جبريل فقال : يا محمد ، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعار الحج .

ونادى محمد ملبياً .

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لك ، لا شريك لك .

فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية خلفه ، وتجاوب الفضاء بالنداء ، وراح الكون يناجى ربه . واستمر موكب المسلمين ، حتى بانت أرباض مكة ، فراح الموكب يغذ فى السير ليدخل أم القرى وليطوف بالبيت العتيق . وأحس سعد ألما فى رأسه ، ولكنه كان فى غمرة حماسة يهتف من كل قلبه « لبيك اللهم لبيك » فنسى ألمه . وفى اليوم الرابع من ذى الحجة دخل المسلمون مكة ، فاتجهوا إلى الكعبة ، واستلم سعد الحجر الأسود وقبله ، ثم أخذ يطوف بالبيت وراح يهرول ولكنه أحس بألم رأسه يشتد ، وانتهى الطواف فأحس بخدر وبساقيه لا تقويان على حمله ، ولكنه تجلد وخرج خلف النبي من الباب إلى الصفا ، فسمع النبي يقرأ : (إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام) ابدأ بما بدأ الله به ، فبدأ سعد بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة وهتف :

ـــ لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل

شيء قدير . لا إلـه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه فى الوادى رمل ، حتى إذا صعد مشى ، فلما أتى المروة ورقى عليها سمع النبى يهتف :

— اسعوا إن الله كتب عليكم السعى .

ونظر سعد إلى البيت ، فرأى دنيا تتراقص ، وأحس كأن الأرض تميد به ، فأغمض عينيه وطأطأ رأسه وراح يلتقط أنفاسه ، وبقى على ذلك مدة ، ثم اتجه إلى خيمته وتمدد ، وطاف به ملاك النوم فراح فى سبات عميق .

وفى يوم التروية تحرك الحجيج إلى منى ، وذهب سعد معهم وقد نال منه المرض ، ثم نزل خيمته ينتظر يوم الحج ، وطلع فجر اليوم المرقوب ، فخرج إلى عرفات وراح يرتقى الجبل ويهتف بصوت خفيض يتلاشى بين أصوات التلبية المدوية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

وانقضى النهار فى دعاء ، ومالت الشمس نحو المغيب ، ولما ابتلعها الأفق البعيد امتطى رسول الله ناقته القصواء ثم سار حتى أتى بطن الوادى ، فخطب خطبة الوداع ، ثم نزل عن ناقته ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها حتى بلغ الصخرات ، وتلا النبى الحبيب على الناس : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

أتم سعد مناسك الحج الأكبر ، وقد نال منه المرض كل منال ، فاتجه إلى داره محموما ، وثقل عليه المرض حتى أشفى على الموت ، وأقبل النبى يعوده ، ففتح سعد عينيه ، فلما رأى النبى همس :

— يا رسول الله ، بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة لى واحدة ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟

— لا .

— أفأتصدق بشطره ؟

— لا . الثلث يا سعد ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . وإنك لن تنفق نفقة تبغى بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة التى تضعها فى فم امرأتك .

وصمت النبى ﷺ قليلا ثم قال :

— اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خوله يرثى له رسول الله إن مات بمكة .

ووضع النبى يده على جبهة سعد ، فمسح وجهه وصدره وبطنه وقال :

— اللهم اشف سعدا وأتم له هجرته .

الفصل الثامن

وفاةِ الرسول

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

(قرآن كريم)

أبل سعد من مرضه ، وسمع لغطا وجلبة فى الخارج ، فنهض وخرج لينظر ما هناك ، فألفى مكة تغص بالناس ، وكل قبيلة تتأهب للانطلاق إلى ديارها ، فانطلق يجيل الطرف فيما حوله ينقب عن الرسول وصحبه ، فوجده يتأهب للعودة إلى يثرب ، فسلم عليه ، وبان السرور فى وجه النبى لإبلاله ، ثم عاد سعد إلى داره ، وحمل زوجته وابنته وانضم إلى إخوانه المنطلقين إلى يثرب .

عاد سعد إلى يثرب واستأنف حياته بها ، وفى يوم بلغ الدار فعلم أن زوجه قد جاءها المخاض ، وأن بعض النساء عندها ، فراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة ، وتصرم الوقت ، وارتفع صياح المولود فهز أوتار قلبه ، وأسرع يستفسر فعلم أن الله قد رزقه مولودا ، فحمد الله وسماه عمر .

وخرج سعد فرحان ، ولكن لم يدم فرحه ، فقد علم أن النبى مرض ، فخشي عليه لأنه لم يشك مرضا قبل اليوم ، وذهب ليستفسر عنه ، فقابل مولاه أبا مويهبة فسأله :

ــ كيف حال الرسول ؟

ــ أرق الليلة .

ــ وما فعل ؟

ــ خرج يسير حول المدينة .

ــ وأين ذهب ؟

ــ إلى مقابر المسلمين .

ــ وما فعل هناك ؟

ــ استغفر لأهل المقابر ...

ودخل سعد على النبى فألفى الحمى قد ازدادت به ، فأطرق مكتئبا ، وخرج حزينا وقد أقلقته الهواجس ، وراحت الأفكار تتزاحم فى رأسه ، واحتلت واحدة فكره : أيقضى الرسول كما يقضى الناس ، وحاول أن يطرد هذه الفكرة البغيضة التى سيطرت عليه وأقلقته ، فكان كلما طردها من ذهنه عادت إليه ، فتعوذ بالله من الشيطان ، وراح يقرأ ما تيسر من القرآن فهدأت نفسه ، واطمأن قلبه .

مرت أيام والنبى فى داره لا يخرج إلا للصلاة بالناس ، وفى يوم خرج إليهم معصوب الرأس ، واتجه إلى المنبر وجلس عليه ، وحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، وأكثر من الصلاة عليهم ، ثم قال : (أيها الناس أنفذوا جيش أسامة ، إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبله . وأيم الله إنه كان خليقا بالإمارة ، وأيم الله إنه لمن أحب الناس إلى بعده) وصمت النبى ، فخيم السكون على المكان حتى لم يعد يسمع فيه لاغية ، ثم استأنف النبى حديثه فقال : (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ماعنده ، فاختار ما عند الله) . وصمت النبى ثانية وصمت الناس ، ولكن أبا بكر أحس



وامتنع خروج النبى إلى المسجد

أن النبى ينعى إليهم نفسه ، فبكى وقال : (بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله) . وراح النبى يوصى المهاجرين بالأنصار ، ثم دخل بيت عائشة وقد ازدادت عليه وطأة المرض بعد ذلك المجهود الذى بذله وهو مريض ، وقد أهريق عليه سبع قرب من ماء قبل أن يخرج إلى الناس .

وامتنع خروج النبى إلى المسجد ، وراح سعد يستفسر عنه كل يوم ، وفى يوم من الأيام ، وقف المسلمون خلف أبى بكر لصلاة الصبح ولمحوا النبى مقبلا معتمدا على على بن أبى طالب والفضل بن العباس ، ففرحوا لرؤيته ، وسرى السرور بينهم لإبلال نبيهم من مرضه ، وأحس أبو بكر حركة بين الصفوف ، فعلم أن النبى قد أقبل ، فنكص عن مصلاه ليخليه لرسول الله ، ولكن النبى دفعه فى ظهره وجلس عن يمينه وصلى قاعدا .

وقضيت الصلاة فأسرع سعد إلى النبى ، وقد شاع البشر فى وجهه ، وانجفل الناس إليه والسرور يهزهم ، والفرح يكتنفهم ، وعاد النبى إلى داره وانصرف الناس إلى شئونهم والغبطة تملأ قلوبهم ، وانطلق سعد إلى داره مسرورا .

لم يدم فرح سعد كثيرا ، فما كاد يستقر فى داره حتى بلغه الخبر الفاجع ، والرزء الفادح ؛ بلغه أن رسول الله قضى ، فما صدق الناعى ، وأسرع إلى المسجد يتنازعه الرجاء واليأس ، ولما اقترب منه سمع بكاء ونحيبا ، فأحس كأن قلبه يغوص ، ودخل المسجد فألفى المسلمين يموجون بعضهم فى بعض فراح يسأل :

ـــ « أمات رسول الله حقا ؟ » وما كان فى حاجة إلى أن يسأل أو ينتظر جوابا ، فقد كان الجميع يبكون ، فظهر الجزع عليه ، وأحس رغبة فى البكاء ، ولكن تحجر الدمع فى عينيه ، وجثم الحزن على صدره فضاقت أنفاسه ، وأحس

جفافا فى حلقه ، وأخذ يلقط أنفاسا متلاحقة ، وأجال بصره الشارد فى المسجد فرأى عمر يجهش بالبكاء وينتحب بصوت عال ، فاتجه إليه وتلاقت العيون ، فغامت عينا سعد بالدمع ، ثم انهمر غزيرا ، وراح سعد ينشج بصوت مرتفع .

تم جهاز الرسول ، ووضع على سريره ، وفتحت الأبواب للمسلمين ليدخلوا من ناحية المسجد ليلقوا على نبيهم الكريم نظرة الوداع الأخيرة ، فدخل الرجال وقد غشي وجوههم الأظلام ، وارتسم عليها الأسى والحزن العميق . ودخل سعد بوجه باسر ، مطأطئ الرأس ، كسير القلب ، ولما وقع نظره على النبى المسجى فى فراشه ، ترقرق الدمع فى عينيه ، ووقف يصلى عليه فى خشوع . وساد المكان صمت رهيب ، ولما أتم أبو بكر الصلاة على النبى ، قال بصوت خفيض حزين :

— نشهد أن نبى الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه ، وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه .

فرد المسلمون عليه :

— آمين .

— وأنه وفى بوعده .

— آمين .

— وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

— آمين .

وصمت أبو بكر فخيم السكون ، ثم أخذ الرجال ينصرفون ، وفى نفوسهم حزن ثقيل ، فهذا آخر عهدهم بالنبى الكريم ، الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهداهم سواء السبيل .

الفصل التاسع

مانعو الزكاة

« والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(أبو بكر)

انفض كبار الصحابة من عند أبى بكر خليفة رسول الله ، لما عسعس الليل ، وهجع السكون ، وانطلق سعد إلى داره ، وفى الطريق أطلق لخياله العنان ، فأخذت حوادث الأيام الأخيرة تمر أمامه متتابعة متلاحقة ، فهذه وفود القبائل مقبلة كالبحر الزاخر ، بعد أن بلغها موت النبى . وها هى تقابل خليفة رسول الله ، وتعرض عليه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة . وها هم كبار الصحابة يطلبون منه أن يتألف القوم ، وألا يثيرهم عليه ، حتى لا يميلوا على المدينة ، وينقضوا عليها ، وليس بها من يذب عنها ، وقد خرج جل المسلمين فى جيش أسامة ، المنطلق إلى بلاد قضاعة . وها هو أبو بكر يرفض هذا العرض الذليل ، ويقول القول الفصل : « والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » وها هى الوفود تعود إلى باعثيها ، وقد بان الغدر فى وجوههم ، وغمغم سعد : « ترى ما نفعل لو انقضت هذه الأقوام علينا ، وليس بالمدينة من يحميها ؟! » واستمر فى تفكره حتى بلغ داره فدخلها وأفكاره معه ، وأخذ يبدى ويعيد حتى غلبه النوم فأراحه .

ولما تجلى الصبح ، أقبل رجل على سعد يخبره أن أبا بكر يدعوه إليه ، فأسرع بالخروج ، حتى إذا ما أتاه ألفي عليا ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الله بن مسعود عنده ، فانضم إليهم ، وراحوا يتذاكرون ما كان من أمر الوفود ، فقال أبو بكر :

ـــ إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .

وخرج المسلمون يستعدون للذود عن مدينة الرسول ، فلبسوا عدة القتال . وخرج على ، والزبير ، وسعد ، وطلحة ، وعبد الله بن مسعود ، ونفر من المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقى باقى المسلمين فى المسجد مدججين بالسلاح ، على استعداد للقتال إذا فكر أحد فى مداهمتهم .

مر يوم ، واثنان ، وثلاثة ؛ وعلى ، وطلحة ، وسعد وأصحابهم عند مداخل المدينة ساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين . وما كادت شمس اليوم الثالث تغيب ، حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث على وسعد والزبير إلى أبى بكر رسولا ينبئه بالخبر ، فأجابهم أن ألزموا أماكنكم .

استل سعد سيفه ، ووقف كالأسد متحفزا للوثوب ، ومد بصره إلى الأفق مستطلعا ، ولكن الليل كان حالكا ، فما كان بصره ليخترق طيات الظلام المتراكمة بعضها فوق بعض ، فأصاخ السمع فلم يبلغ أذنيه إلا صوت النسيم السارى فى سكون الليل ، فقد كان الكون نائما ، ولم يك هناك من يقظان إلا هؤلاء البواسل الذين هبوا للذب عن حياضهم . وأرهفت منه الحواس جميعا ، إن القوم لمقبلون لإرغامهم على التجاوز عن فرض من فروض الإسلام ، ولكن هيهات ، فقد عقدوا العزم على منافحة من توسوس لهم نفوسهم بالهجوم

عليهم ، بل لقد عزموا على أن يقاتلوهم حتى يرغموهم على أن يؤتوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

وصك أذن سعد رغاء إبل ، فتلفت حوله ، فرأى جموعا مقبلة من المدينة ، فأسرع نحوها فإذا أبو بكر فى أهل المسجد على الإبل قد نفروا للذود عن مهجر الرسول .

واجتمع كبار الصحابة ، وتشاوروا فى الأمر ، فرأى أبو بكر مفاجأة العدو فى غسق الليل ، وأخذه على غرة منه . فامتطى المسلمون رواحلهم ، وراحوا يضربون فى جوف الليل البهيم ، حتى بلغوا معسكر الأعداء ، فانقضوا عليهم ، فأخذوا وولوا الأدبار . فاقتفى المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مددا من الرجال ليشد أزرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ، ووقفوا فى وجه المسلمين المغيرين . وراح سعد يضرب فى عماية الليل ، ويشد على الأعداء . ودار القتال شديدا رهيبا ، وأحس سعد راحلته تجفل ، فشد زمامها ووجهها صوب العدو ، فإذا بها تجفل ثانية ؛ وكان كلما حاول أن يندفع بها جفلت . ترى ما دهاها ؟. جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال ، وضربوها بأرجلهم فى وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل ، واستمرت فى ارتدادها حتى دخلت يثرب .

نام الأعداء تلك الليلة ملء الجفون ، ولم لا ينامون مطمئنين بعد أن لاح لهم النصر ، وأمسى الفوز فى ركابهم ، فما هو إلا أن تبزغ الشمس ، حتى يميلوا على المدينة بأسيافهم ، ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة .

أما المسلمون أهل يثرب ، فلم يذوقوا للنوم طعما ، وراحوا يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح . فلما كان الثلث الأخير من الليل ، خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم ركز ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ،

فداهموهم وأعملوا سيوفهم فيهم ، فهبوا من نومهم مذعورين ، يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل يثرب فراحت تحصدهم حصدا ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

جاء المسلمون بعد هذا النصر من مختلف القبائل إلى المدينة يحملون الزكاة ، وفى هذه الأثناء عاد جيش أسامة مظفرا منتصرا ، فشد أزر أهل يثرب ، فرأى أبو بكر محاربة الذين ارتدوا بعد موت النبى ، فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين ؛ فخرجت جيوش المسلمين لقتال مدعى النبوة وأتباعهم ، ولرفع الراية الإسلامية على بلاد العرب جميعا ، كما كانت مرفوعة موفورة الكرامة قبل موت الرسول .

الفصل العاشر

المثنى بن حارثة الشيبانى

﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ .
(قرآن كريم)

دارت المعارك بين المسلمين والمرتدين ، وكان المسلمون ينتقلون من ظفر إلى ظفر ، وكادت حركة المرتدين يقضى عليها ، وفى يوم جلس أبو بكر وعمر وسعد وعلى وكبار الصحابة فى المسجد ، وأقبل رجل عليهم ، وأخذ يقص عليهم ما فعله العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين فى البحرين ، وكيف انضم إليه المثنى بن حارثة ، وكيف سار المثنى شمالا ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة والفرات[1] ، وراح الرجل يقص عن المثنى الشيء الكثير ، فسأل أبو بكر :

ـــ ومن هو المثنى هذا ؟

فقال أحد الحاضرين :

ـــ هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى !

ـــ ومن أى قبيلة هو ؟

---

(١) ذكرت هذه الحوادث وما بعدها تمهيدا للقادسية .

— من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل فيما سمع ، إن معنى سير المثنى حتى الفرات مناجزة الفرس ومن يدرى ؟ لعل فى ذلك خيرا للإسلام ، ولعل فى ذلك انصراف المسلمين عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة ، واستمر أبو بكر فى تفكيره وتأمله حتى قدم المثنى إلى المدينة ، وقابل خليفة رسول الله ، وراح يقص عليه ما تلاقيه قبائل العرب التى نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم وجور الدهاقين ، وإن هذا الظلم يجعلهم كمرجل يغلى بالمقت لهم ، فإذا ما هاجم المسلمون العراق ، ثار العرب النازلين به للتخلص من جور الدهاقين ، فكانوا عونا للمسلمين ، واستمر المثنى يدلى بحججه ، فأطرق أبو بكر ساعة ، وساد الصمت بين الرجلين ، وأخيرا قال المثنى :

— أمرنى على من قبلى من قومى أقابل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى .

— سأشاور أصحابى فى الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلى وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة يدعوهم إليه ، فلما التأم عقدهم ، دارت قداح الرأى بينهم ، فرأوا جميعا ضرورة استشارة خالد فى الأمر ، فبعث أبو بكر إليه رسولا ، فجاء على عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه ، رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بأجنادهم .

أمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وراح المثنى يحارب الفرس ، يناجزهم على العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع ، وخشى أبو بكر أن ينتصروا على المثنى فأرسلّ إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار ، أن يسيروا إلى

العراق لنجدة المثنى ، فانطلق خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل من اليمامة إلى العراق ، فلما بلغ حدوده ألفى المثنى فى انتظاره ، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق ، انطلقت كل فرقة فى طريق ، على أن يلتقوا جميعا بالحفير .

دارت معارك رهيبة بين جيوش خالد وجيوش الفرس ، انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا ، فزادت حميتهم ، وراح الفرس يتقهقرون والمثنى يجد فى أثرهم معللا النفس بدخول المدائن عاصمة دولتهم ، وفيما هو يتعقبهم إذ بلغته الأنباء بأن جيشا عظيما من الفرس قد خرج من المدائن لملاقاة خالد ، فكتب إلى خالد بهذا ، ورأى من الحكمة ألا يقابل هذه القوة الهائلة ، فانحرف بجيشه ونزل بالمذار ينتظر قضاء الله . أقبلت جيوش الفرس ، ورأت جيوش المثنى ، فوجدت الفرصة سانحة لغسل ما لحقها من عار الاندحار ، ها هى جيوش المسلمين فى قبضتهم ، هجوم واحد ثم ينتهى كل شيء ، وشنوا هجومهم ، وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت جند خالد مهللة مكبرة ، فشد ذلك من أزر المثنى وجنوده ، فانقلبوا أسودا كواسر ، ودارت رحى معركة شديدة فغرت فيها المنايا أفواهها ، وأطيحت رءوس الفرس ، وانجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين .

تقدمت جيوش المسلمين . وأخذت البلاد تسقط فى أيديهم بلدا بعد آخر ، وفى يوم جاء أمر الخليفة إلى خالد بالتوجه إلى الشام ، فخرج المثنى لتوديعه ، ثم عاد إلى الحيرة لينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد .

علم الفرس بسفر خالد فحسبوها فرصة سانحة للقضاء على المثنى ومن معه ، فوجهوا جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربته ، فلما ترامت الأنباء إلى المثنى خرج لملاقاة العدو ، وبينا كان فى الطريق إذ وصلته رسالة من شهر بازان

عاهل الفرس يقول له فيها : « إنى قد بعثت إليك جندا من أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » . فرد على هذه الرسالة مع نفس الرسول برسالة جاء فيها : « من المثنى إلى شهربازان ، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك ، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

نزل المثنى على خمسين ميلا من المدائن ، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل ، وراح الفريقان يتأهبان للنزال وابتدأت المعركة ، فأخذ الفيل يضرب المسلمين بخرطومه فيفرق صفوفهم ، فرأى المثنى ضرورة القضاء على الفيل ، فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا ، ثم شددوا النكير على الفرس ، واشتد الطعن والقتال ، فمزقوهم شر ممزق ، وحاقت الهزيمة بالفرس ففروا والمسلمون يتبعونهم ، حتى وقفوا على أبواب المدائن يطرقون بابها .

بلغت أنباء الهزيمة الماحقة شهربازان ، فمات كمدا ، ووقفت جيوش المسلمين على أبواب المدائن ، وفكر المثنى فى أمره ، أيهجم على المدائن بما معه من الجند ؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها ، ولكن فتحها بمن معه فقط ضرب من المحال ، فرأى أن يطلب من خليفة رسول الله مددا يعينه عليها ، فكتب إليه يخبره بانتصاراته ، وبحاجته إلى مدد يعاونه على فتح المدائن ، وطال انتظاره ، وأبطأ رد الخليفة ، وترامت الأنباء إليه أن أهل فارس قد اختلفوا فيمن يولونه خلفا لعاهلهم ، وأخيرا أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته ، فتولت الملك ، ولكن لم يسمع لها ، ولم ينفذ لها أمر ، فتآمروا عليها وخلعوها ، وتولى سابور بن شهربازان الملك ، ولكنه كان حدثا فقام بأمره الفرخزاد ، وتقدم

الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزرميدخت ابنة كسرى ، فقبل ولكن آزرميدخت رأت فى هذا امتهانا لكرامتها ، فقالت لسابور :

« يا بن عمى : أتزوجنى عبدى ؟! » فقال لها : « لا تقولى هذا إنه زوجك » فكتمتها فى نفسها وبعثت إلى بعض أعوانها ودبرت معهم أمرا ، وفى ليلة العرس تم ما دبرت ، فقتل العريس الفرخزاد ، وتملكت آزرميدخت . علم المثنى كل هذا فتيقن أن الفرصة مواتية لفتح المدائن ، فأسرع إلى المدينة لمقابلة الصديق وإقناعه بضرورة إرسال مدد له ليتم للمسلمين وضع يدهم على حاضرة الدولة العظيمة .

راح المثنى يجد فى السير ، حتى بلغ المدينة ، وعلم أن خليفة رسول الله مريض ، وأنه قد أشرف على الموت ، فلم يثنه ذلك عن عزمه ، بل طلب الإذن بالدخول . فأذن له ، ولما دخل راح يقص على أبى بكر الممدد فى فراشه ما فعله مع الفرس ، وكيف أن الفرس مختلفون فيما بينهم ، وأن فى هذا الاختلاف فرصة طيبة للمسلمين ، واستمر يدافع عن رأيه حتى اقتنع أبو بكر ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فإن أنامت فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم » .

ومات أبو بكر . وفى صبيحة الليلة التى قبر فيها . وقف عمر ينتدب الناس لقصد العراق ، فلم ينتدب له أحد ، فقد كان المسلمون يخشون فارس لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الممالك ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى من خلافة عمر ، ووقف ينتدب الناس فلم يتقدم أحد ، وفى اليوم الثالث قام

المثنى مهونا على المسلمين أمر الفرس : « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه فأنا قد تبحبحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ ما قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .

وقام عمر يخطب الناس : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟

وتلفت المسلمون بعضهم إلى بعض ، وتقدم أبو عبيد بن مسعود الثقفى ، فلما رأى سعد بن عبيد ذلك تقدم هو الآخر ، ورأى سليط بن قيس تقدم أبى عبيد وسعد بن عبيد فتقدم ، فسرت موجة حماسة بين الموجودين ، فراحوا ينضمون إلى المسلمين الخارجين لملاقاة فارس .

اجتمع كبار المهاجرين والأنصار بعمر وقالوا له :

ـــ أمر عليهم رجلا من المهاجرين أو من الأنصار .

فأبى عمر وقال :

ـــ إن من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة .

وأمر أبا عبيد الثقفى على الجيش ، والتفت إلى سعد بن أبى وقاص وأمره أن يستعد للخروج إلى هوازن لجمع الزكاة والعشور .

استعد الجيش للخروج ، واستعد سعد للانطلاق إلى هوازن ، وخرج مع عمر لتوديع الجيش ، ولما بلغا مكان الجيش التفت عمر إلى أبى عبيد وقال :

ـــ اسمع من أصحاب النبى ﷺ ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا

حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى لا يعرف الفرصة والكف ، ولم يمنعنى أو أؤمر سليطا إلا سرعته إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث .

وتحرك الجيش فى رعاية الله ، وخرج من المدينة قاصدا الفرس لإعلاء كلمة الحق ، وفى نفس الوقت خرج سعد لجمع أموال هوازن ، وما دار بخلده أبدا أن القدر قد ربط بينه وبين الجيش الخارج بأوثق رباط .

الفصل الحادى عشر

موقعة الجسر

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

(قرآن كريم)

انطلق جيش المسلمين يقطع الفيافى والقفاز ، قاصدا العراق ، وسار المثنى بجيوشه حتى بلغ الحيرة ، فانتظر هناك ، وترامت الأنباء إليه أن أمر فارس قد استقر لبوران ، وأنها أرسلت إلى رستم واستدعته من خراسان ، وجعلت إليه حماية البلاد ، وسلمته قيادة الجيوش ، فكتب رستم إلى الدهاقين أن يثوروا ، وبلغ المثنى أن رستم بعث جندا لقتاله ، فجمع مسالحه ، واجتمع إليه المسلمون ، فانطلق بهم إلى خفان ، وأرسل إلى أبى عبيد ليوافيه هناك ، والتأم جمع المسلمين ، وتأهبوا لملاقاة الفرس .

ثار من الدهاقين أول من ثار جابان فى فرات بادقلى ، فانطلق إليه جيش المسلمين ، والتقى الجمعان فى النمارق ، فدارت رحى معركة شديدة ، وكبر المسلمون ، فزلزلت الأرض ، وصالوا وجالوا ، فكانت رءوس الفرس تطيح ، وكأنما كانت ثمارا أينعت وحان قطافها ، ورأى جابان ما حل بجيشه فثبت فى الميدان ، وراح يحث جنوده على الثبات ، ولكن هيهات ، فقد كان الواحد منهم

يسقط مجندلا إثر الآخر تحت ضربات المسلمين ، وراح جابان يذب عن نفسه ، حتى أعياه التعب فوقع أسيرا ، وجيء به إلى أبي عبيد ، فنظر إليه فألفاه في ملابس فاخرة ، فراح يتفحصه ، فقال أحد الجنود :

ـــ إنه الملك .

وقال ثان :

ـــ لا بد من ضرب عنقه ، فقد ألب القوم علينا .

وقال ثالث :

ـــ ليقتلن .

فتقدم أحد الجنود وقال :

ـــ إني أمنته أيها الأمير .

فقال بعض الواقفين في ثورة وغضب :

ـــ ليقتلن ، لقد أثار القوم علينا .

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم رفع رأسه وقال :

ـــ إني أخاف أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد الواحد ، ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم .

فقالوا له :

ـــ إنه الملك ، وإنه الذي حاربنا .

ـــ وإن كان ... لا أغدر . لن أقتله أبدا ...

* * *

أدبرت فلول جيش جابان ، وتركت النمارق ، وأسرعت إلى كسكر لتنضم إلى نرسي القائد الكسروي ، ولما رأى نرسي هزيمة جابان أرسل إلى رستم يطلب منه مددا لوقف خطر العرب الزاحف في كل مكان ، فوعده رستم

بإرسال مدد بقيادة الجالينوس ، ولكن أبا عبيد فاجأ القوم قبل وصول المدد ، فانهزم الفرس ، وفر نرسى ، فسرح أبو عبيد جيوشه لإخضاع من حوله من أهل العراق . خرج المثنى على رأس جيشه لاستخضاع بعض مناطق العراق ، فرأى زعيمان من الزعماء ألا قبل لهما بدفع هؤلاء الناس الذين يحبون الموت حبهم للحياة ، فعزما على مصالحتهم ، فانطلقا إلى المثنى وحادثاه فى أمر الصلح ، فأخذهما إلى أبى عبيد ، فصالحهما على شىء معلوم ، ولما تم الصلح شاء الزعيمان استرضاء أبى عبيد ، فجاءوا بآنية فيها ألوان من أطعمة فارس وقدماها إليه وقالا :

ـــ هذه كرامة أكرمناك بها ، وقرى لك .

فقال أبو عبيد :

ـــ أألزمتم الجند وقربتموهم مثله ؟

ـــ لم يتيسر ، ونحن فاعلون .

ـــ فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند . بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه . لا والله ، لا يأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مما يأكل أوساطهم .

رأى الجالينوس ترادف انتصار المسلمين ، فخشى أن يكون ذلك نذير تقلص ملك الفرس ... فأسرع إلى رستم يستحثه على العمل ، على أن يخضد من شوكة المسلمين قبل أن يستفحل الأمر ، وأقلق انتصار العرب الشعب الفارسى ، فتجمهر أمام القصر الملكى ، وجعل يطلب طرد الغزاة ، وأخرجو (الدرفس كابيان) وهى راية كسرى وكانت من جلود النمور ، طولها اثنا عشر ذراعا ، وعرضها ثمانية أذرع ، وكانت على خشب طوال موصل ، وما كانت فارس تظهرها إلا فى الأمر الشديد ، وسبب اعتزازهم بهذه الراية ، أن أحد

ملوك الفرس جار على رعيته ، وسامهم سوء العذاب ، واسترسلت حكومته فى الظلم والطغيان ، وكممت الأفواه ، وحجرت على الحريات ، فلم يطق حداد ذلك الظلم الشديد ، فهانت نفسه ، فما قيمة الحياة فى ذلك الأتون البغيض ! وخرج من حانوته وخلع الجلد الذى يربطه فى وسطه ، ورفعه على عصا طويلة ، وانطلق فى الطريق وحده يهتف : « من لا يطيق الظلم فليتبعنى » ، وتشجع بعضهم فانضموا إليه ، وساروا صوب القصر الملكى ، وفى الطريق كانت الجموع تنضم إلى الصارخين بسقوط الظلم والاستبداد ، وبلغ الشعب الثائر القصر فاقتحموه ، وقتلوا الطاغية ورجال دولته المستبدين ، ونصب الحداد ملكا ، وأسس الدولة الكسروية ، فاتخذ ملوكها راية الحداد شعارا لهم ، ثم استبدلت بجلد النمور .

عبئت الجيوش فى فارس ، وخرجت على رأسها جاذويه ، والدرفس كابيان ترفرف أمامهم ، فتبعث الحمية فيهم ، وانطلقت الجيوش حتى بلغت الفرات فعسكرت على ضفته ، وأقبلت جيوش المسلمين وعسكرت على الضفة الثانية ، ولم يكن هناك من فاصل بين القوتين المتناحرتين ، إلا الفرات السارى فى هدوء ، وكأنما المعركة الدامية التى ستجرى فيه وعلى ضفافه لا تعنيه ، ولا تخرجه عن وقاره واتزانه .

أرسل جاذويه إلى أبى عبيد ، إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فاجتمع رؤساء الجيوش وتداولوا فى الأمر ، وكان من رأيهم أن يدعوا الأعداء تعبر إليهم ، ولكن أبا عبيد كان يرى أن يعبر المسلمون فدار الجذب والشد وقال سليط :

— لا نعبر .

وقال أبو عبيد :



إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم

ـــ بل لا بد أن نعبر .

وأمر أبو عبيد بإنشاء جسر ، فراح الناس يعملون فى إنشائه ، ولما تم ، قال أبو عبيد :

ـــ تقدم يا سليط .

ـــ لولا أنى أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس ، ولكننى أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأت وأشركنى عمر معك .

ـــ تقدم أيها الرجل .

ـــ أفعل .

وعبر سليط ومن معه ، وعبر المثنى وجيوشه ، وعبر أبو عبيد وباقى المسلمين ، والتفت أبو عبيد إلى الجسر وأمر بقطعه ، فأسرع الناس إليه ليمنعوه ، وقال سلمة بن أسلم :

ـــ أيها الرجل إنه ليس لك علم بما ترى . وأنت تخالفنا ، وسوف تهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى ، فلا تريد إلا أن تهلكهم فى هذه القطعة .

ـــ يأيها الرجل تقدم فقاتل ، فقد حم ما ترى .

وقال سليط :

ـــ إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعا من هزيمة إن كانت .

ـــ والله لا فعلت . جبنت يا سليط ؟

ـــ والله ما جبنت ، وأنا أجرأ منك نفسا وقبيلا ، ولكن والله أشرت بالرأى .

ـــ تقدم أيها الرجل .. إلى القتال .

ـــ أفعل .

سوى المسلمون صفوفهم ، واستعدوا لملاقاة الأعداء ، وأقبلت جيوش فارس ، أمامها فيل عليه التحافيف ، فرأى المسلمون شيئا لم يروا مثله قط ، وابتدأ القتال ، فجرى الدم أنهارا ، وراح أبو عبيد وسليط والمثنى يجولون كأسود كواسر ، وأطل الموت من سيوفهم ، وقتل من الفرس ستة آلاف ، وتقدم الفيل ، وراح يضرب المسلمين بخرطومه ، فدب الذعر بينهم ، وفروا من أمامه . ولما رأى أبو عبيد ذلك ترجل ورمحه فى يده ، واندفع نحو الفيل كالشهاب ، وصوب إلى عينيه ضربة هائلة ، فراح الفيل يضرب بيده ، فضرب أبا عبيد ضربة قاتلة ، فسقط مجندلا ، يخبط فى دمه .

رأى الجند ما حل بقائدهم . فدب الذعر فيهم . وتقهقروا هلعين ، فأخذهم السيف ، وراح بعضهم يلقى بنفسه فى النهر . وثبت المثنى وسليط وبعض فرسان المسلمين . وهتف المثنى أن أعيدوا عقد الجسر ، وراح المسلمون يعقدونه ، والمثنى ومن معه يتحملون هجمات الأعداء ، ولما تم عقده هتف ثانية :

ـــ يأيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ، ولا تدهشوا ، فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم .

واستمرت الحرب الطاحنة بين المثنى ومن معه وبين جيوش الفرس العازمة على استئصال المسلمين ، وأسرع الناس إلى العبور ، ولكنهم وجدوا عبد الله بن مرتد الثقفى عند رأس الجسر شاهرا سيفه ، يمنع الناس من العبور ، وهو يصيح فيهم :

ـــ لن نفر أبدا .. لن نفر أبدا .. موتوا على ما مات عليه أمراؤكم .

فتكاثروا عليه وأخذوه ، وأتوا به المثنى فضربه . وقال له :

ـــ ما حملك على هذا ؟

— ليقاتلوا وليموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا .

— اذهب ودعهم .

— ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

وابتدأ الناس فى عبور الجسر ، وراح المثنى وسليط ومن معهما من فرسان المسلمين يحمون المنسحبين ، وقاتلوا قتال الأبطال ، وهم يتقهقرون صوب الجسر ، وابتدأ من مع المثنى فى العبور ، وأخذ المثنى يعبر الجسر ، ووقف سليط وحده على رأسه يحمى المنسحبين ، وكأنما انقلب سليط إلى وحش كاسر ، فراح يضرب ويضرب ، وتفصد العرق منه ونال منه الجهد ، فضربه أحدهم ضربة فسقط مجندلا فى نفس اللحظة التى قطع المثنى فيها الجسر خلفه .

وارتمى المثنى على الشاطئ منهوكا ، وفر المسلمون وهاموا على وجوههم ويمم أغلبهم صوب المدينة ، وما بقى مع المثنى إلا نفر قليل ، وأسرعت زوجه سلمى إليه تضمد جراحه .

حاول الفرس عبور النهر ومطاردة المسلمين والقضاء عليهم ، وبقى المثنى ومن معه ينتظرون قضاء الله ، بقلوب عامرة بالإيمان ، إن الموت ليقترب منهم ، وما يحول بينهم وبينه إلا ذلك النهر ، فما أيسر أن يعبره الأعداء ، وما أيسر أن يقضوا عليهم ، ومع ذلك لم يرتجفوا ، ولم يرتعدوا فرقا ، بل انتظروا ما يحل بهم بقلوب راضية مطمئنة ، انتظروا قضاء الله صابرين ، فلن ينجيهم مما حاق بهم من خطر داهم إلا معجزة من السماء ، وما ودعهم ربهم وما قلاهم ، بل جاء عونه سريعا ، فما همت جيوش الفرس بالعبور حتى سرى نبأ بينهم أن الناس فى المدائن قد ثاروا برستم ، وانقسموا قسمين ، قسم معه وقسم مع الفيرزان ، فانشغلوا بذلك ، وانسحبوا ، ولما رأى المثنى انسحابهم ، خر ساجدا لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

سعد الأسد عاديا

« يا سعد بني وهب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن » .

(عمر بن الخطاب)

هام الناس على وجوههم عقب هزيمة الجسر ، تاركين المثنى ومن معه وراحوا يقطعون القفار ، حتى بلغ بعضهم المدينة ، فاختبئوا وتحاشوا مقابلة عمر ، وأخذ الناس يعيرونهم بفرارهم ويقولون إن مأواهم جهنم وبئس المصير . فجزع الفارون جزعا شديدا ، واستحيوا من فرارهم ، ولما انتهى خبر هزيمة الجسر وقتل أبى عبيد إلى عمر شق ذلك عليه . فكتب إلى عماله على العرب يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس ، وأرسل إلى سعد كتابا يستحثه على استنفار هوازن ، وانطلقت الرسل بالكتب تدعو القبائل التى طريقها إلى المدينة بموافاة عمر فيها ، والقبائل التى طريقها إلى العراق بالانضمام إلى المثنى وشد أزره .

واستمر تعيير القوم للفارين ، فقام عمر وقال : « عباد الله ، إن كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة ، لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم ، إنما

انحزتم إلى » . وراح يحث الناس على الجهاد ويدعوهم إلى الاستعداد للخروج ، فاستعد الناس ، وخرج عمر فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى ضرارا . والناس لا يعلمون بشيء مما يريد ، واستعمل على مقدمته طلحة بن عبد الله . وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف ، وقابله عثمان يسأله عما يريد وعما عزم عليه ، فنادى عمر : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس إليه ، فأخبرهم أنه قد عزم على أن يخرج بنفسه لقتال الفرس ، فهتف الناس :

ـــ سر وسر بنا معك .

ـــ استعدوا وأعدوا ، فإني سائر إلى أن يجيء رأى هو أمثل من ذلك .

وبعث عمر إلى أهل الرأى والمشورة ، ودخل عليه على أول من دخل فالتفت عمر إليه وقال :

ـــ ما ترى يا أبا الحسن ، أسير أم أبعث ؟

ـــ سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له .

وخرج على من عنده ، ودخل العباس فى جل مشيخة قريش فسألهم عمر :

ـــ أسير أم أبعث ؟

فقالوا :

ـــ أقم وأبعث غيرك ليكون للمسلمين أن انهزموا فئة .

وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فسأله ، فقال عبد الرحمن :

ـــ فديت أبى وأمى ، أقم وابعث فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك ، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ، ولا يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله أبدا .

وخرج عبد الرحمن ، فدخل عثمان فقال عمر :

— يا أبا عبد الله ، أشر على أسير أم أقيم ؟

— أقم يا أمير المؤمنين وابعث الجيوش ، فإنى لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام ، ولكن ابعث الجيوش وذاركها بعضها على بعض ، وابعث رجلا له تجربة بالحرب ومضربها .

— ومن هو ؟

— على بن أبى طالب .

— فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعا إليه أولا ؟

وخرج عثمان وقابل عليا ، فذاكره ذلك ، ولكن عليا أبى ذلك وكرهه ، فعاد عثمان وأبلغ عمر رفض على ، فقال عمر :

— ومن ترى ؟

— سعيد بن زيد بن عمرو .

— ليس بصاحب ذلك .

— طلحة بن عبد الله .

فأطرق عمر ولم يجب . ثم خرجا وقد عزم عمر على أن يقيم وأن يبعث وراح يفكر فيمن يبعثه . ولما بلغ الناس خطب فيهم :

« أما بعد ، إن الله عز وجل ، قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد ، لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، كذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به ، لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . يأيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث

رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت » .

واجتمع أهل الرأى ثانية يبحثون فيمن يؤمرونه على حرب الفرس ، وفيما كانوا يتداولون قداح الرأى بينهم ، وافى عمر كتاب سعد بن أبى وقاص بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس ، وهم ألف فارس ، فقال بعض الحاضرين :

— قد وجدته .

فقال عمر :

— فمن ؟

— الأسد عاديا .

— من هو ؟

— سعد .

— أعلم أن سعدا رجل شجاع ، ولكنى أخشى ألا يكون له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

— هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول الله ﷺ ، وشهد بدرا ، فاعهد إليه عهدا ، وشاوره فيما أردت أن تحدث إليه ، فإنه لن يخالف أمرك .

فقال عمر :

— إنه رجل شجاع ، ضروب بالسيف ، رام بالنبل ، ولكنى أخشى ألا تكون له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عثمان :

— هو صاحب ذاك ، ولكنه غائب فى عمل .

ــ أرى أن أبعث إليه .

فقال عثمان :

ــ ومره فليشاور قوما من أهل التجربة والتبصر بالحرب ، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم .

وانفض الجمع وقد اتفقوا على تأمير سعد ، وخرج عمر فألفى جرير بن عبد الله قدم إلى المدينة ، وقد اجتمعت إليه بجيلة ؛ فاتفق عمر معه على ربع لهم ، وسرحهم إلى العراق لشد أزر المثنى .

بلغ رسول عمر هوازن ، وقابل سعدا ، وطلب منه الشخوص من فوره إلى المدينة لمقابلة أمير المؤمنين : فشد سعد الرحيل ، ولما بلغ المدينة اتجه إلى عمر وقابله ، فأخبره عمر أنه أصبح أمير الجيوش المقاتلة فى فارس ، وقال له يوصيه :

ــ يا سعد بني وهب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

وخرج سعد من عنده يتأهب للانطلاق إلى العراق ، ولما تم تجهيز كل شيء ، وحان أوان الخروج ، دعاه عمر وقال له :

ــ إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين :

فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية ، فأن تكون حامده ذامه فى الحق سواء ، أما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، بمحبة الناس ، فلا تزهد التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل ، منهم ثلاثة آلاف من اليمن ، وألف من غيرهم ، وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم عمرو بن معد يكرب . وسار الجيش وسار عمر معهم حتى بلغوا الأعوص ، فوقف عمر يودع الجيش فخطبهم :

ـــ إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم القول ليحيى به القلوب ، فإن القلوب ميتة فى صدورها حتى يحيها الله . من علم شيئا فلينتفع به ، وإن للعدل إمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات فالحياء والسخاء واللين ؛ وأما التباشير فالرحمة . وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسر لكل باب مفتاحا ؛ فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق . وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحدا . واكتف بما يكفى من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شىء . إنى بينكم وبين الله ، وليس بينى وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه ، فأنهوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها ، نأخذ له الحق غير متعتع .

وانطلق جيش سعد ليخوض غمار أعظم المعارك هولا فى التاريخ الإسلامى ، وقفل عمر عائدا إلى المدينة .

الفصل الثالث عشر

أفول النجم

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(قرآن كريم)

انسحبت جيوش الفرس بعد أن بلغها خبر انقسام الناس فى المدائن ، قسم مع رستم ، وقسم مع الفيرزان ، فساعد ذلك المثنى على أن يستجم وأن يجمع شتات جيشه ، وخرج يستنفر القبائل التى حوله فنجح فى ضم خلق كثير إليه ، وبذلك جمع جيشا يستطيع أن يصمد إلى أن يبلغه مدد المدينة .

وانطلق جرير من المدينة قاصدا العراق ، فمر بناحية الأبلة ، ثم صعد بناحية المدائن ، وعلم مرزبان المدائن بمقدمه ، فأعد جيشا لملاقاته من عشرة آلاف مقاتل ، وبلغ جرير فى زحفه الدجلة ، فقال له من معه :

ـــ اعبر الدجلة إلى المدائن .

ـــ ليس ذلك بالرأى ، وقد مضى لكم فى ذلك عبرة من مقتل إخوانكم يوم الجسر ، ولكن أمهلوا القوم فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم ، فإن فعلوا

فهو الظفر إن شاء الله تعالى .

ومرت أيام ولم تخرج جيوش الفرس من المدائن . ثم خرجت وأخذت فى عبور النهر ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه ، حمل عليهم جرير ومن معه ، ودار القتال رهيبا لا هوادة فيه ولا لين ، واستمرت الكفتان متساويتين حتى قتل المرزبان ، فرجحت كفة المسلمين ، وأخذ الفرس السيف من كل جانب ، فتقهقروا مهزومين ، وسقط خلق كثير منهم فى النهر فكان الدجلة مثواهم الأخير ، وتم نصر المسلمين ، فأخذوا ما كان فى معسكر الأعداء ، ثم استأنفوا زحفهم ليلحقوا بالمثنى .

التقى جرير والمثنى بالبخلة ، وأحس الفرس اجتماع العرب وكثرة من جاء من النجدة للمثنى ، ورأى رستم والفيرزان الاتفاق ، ونبذ الأحقاد ، والتكاتف فى سبيل إنقاذ الوطن المهدد بالزوال ، فجمعا كلمتهما واتجها إلى بوران ، وأخبراها أنهما عقدا العزم على أن يرسلا مهران فى جيش كثيف لقتال المسلمين ، وخرج مهران فى جيش لجب ونزل من دون الفرات ، وعسكر المثنى وجنده فى البويب شاطئ الفرات الآخر ، وأقبل أنس بن هلال النمرى مددا له فى أناس من نصارى النمر ، وقدم عبد الله بن كليب التغلبى فى أناس من نصارى تغلب ، فلما رأى نزول العرب بالعجم ، قال نقاتل مع قومنا ، وانضم ومن معه إلى جند المسلمين .

تأهب العرب والفرس للنزال ، فبعث مروان إلى المثنى ؛ إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم . فقال المسلمون : اعبروا إلينا .

فأخذ الفرس فى العبور ، وارتفع ضجيجهم ، وصحب عبورهم جلبة شديدة ، فالتفت المثنى إلى المسلمين وقال لهم :

— إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت .

وراح المثنى يتعهد صفوف المسلمين ، ويحثهم ، ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم ، وقال لهم فيما قال :

ــ إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم .

ثم أردف :

ــ شدوا عند التكبيرة الرابعة .

وكبر المثنى التكبيرة الأولى ، واستعد المسلمون لسماع التكبيرة الرابعة للهجوم ، ولكن الفرس لم يمهلوهم، بل عاجلوهم ، وخالطوهم فالتحم الفريقان ، وشد جرير على مروان قائد الجيوش الفارسية وشد حسان بن المنذر عليه ، فطعنه حسان وضربه جرير ، فسقط مهران يخبط فى دمه .

رأى الفرس ما حل بقائدهم فتضعضعوا ، فشد عليهم المثنى ، فانهزموا ، فأسرع المثنى إلى الجسر ليمنع مرورهم ، فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تحصدهم حصدا .

رأى من حضروا وقعة الجسر مع أبى عبيد الفرصة سانحة للقصاص لما نالهم من هزيمة نكراء ، فراحوا يصولون ويجولون ، وتم انهزام الفرس فى البويب ، فانتدب المثنى جرير بن عبد الله لعبور الفرات وتتبع الفارين ، وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، فراحوا يجدون فى أثر العدو ، ثم عادوا بالأسلاب الوفيرة ، والأغنام الكثيرة .

واجتمع المسلمون بعد المعركة يتذاكرون ما فعلوه ، فقال جرير : قد قتلت مهران ، سلبت منطقته :

فبلغ ذلك حسان فقال :

ألم ترنى خالست مهران نفسه   بأسمر فيـــه كالخلال طريـــــر
فخـر صريعـا والتقـانى برجلـــه   فبـادر فى رأسى الهمـــام جريـــر
فقـــال قتـــيلى والحوادث جمة   وكاد جريـــــــر للسرور يطير
فقـال أبـا عمـر وقـــتلى قتلتـــه   ومـــثلى قليـــل والرجـــال كثير
فأرسل يمينـــا أن رمحك نالـــه   وأكـــرم أن تحلـــف وأنت أمير

ترامت أنباء الهزائم المترادفة إلى المدائن . فثار الشعب ، وأيقن أن الرؤساء أس البلاء ، وسبب النكبة العظمى ، فلولا اقتتال رستم والفيرزان وانشقاقهما ، ما انتصر هؤلاء العرب عليهم ، فاجتمع الناس وشخصوا إليهما ، وقالوا لهما :

ـــ لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم ، وإنـه لم يبلـغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى ، وأن تعرضاها للهلكة ، ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ، والله ما جر علينا هذا الوهن غيركم يا معشر الرؤساء ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطوهم عن عدوهم ، ولولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم .

سمع رستم والفيرزان ما سمعا من الشعب الثائر ، فتنبها من غفلتهما ، وخشيا هلاكهما ، فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ، ويجعلونه رمزا لهم ، ومعقد آمالهم ، ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، فملكوه عليهم ، والتف الرؤساء حوله ، وراحوا يتنافسون فى معونته ، فرتبوا المسالح والجنود ، وشحنوا الثغور بالمقاتلة ، وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين .

بلغ المثنى اجتماع الفرس على يزدجرد ، وتجهزهم لحرب المسلمين ، فكتب إلى عمر بذلك يطلب منه مددا ، وبينا كان فى انتظار رد أمير المؤمنين ، تمكن

الفرس من بث دسائسهم بين أهل العراق فكفروا بالعهد ، ونقضوا ما أبرموه بينهم وبين المسلمين ، فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار وجاء كتاب عمر وفيه : « أما بعد ، فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم ، وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا فى ربيعة أحدا ، ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ، ولا فارسا إلا أجلبتموه ، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم ، فلتلقوا جدهم بجدكم » .

اهتم المثنى بأمر عمر ، ففرق الجند على خط واحد ، فكانوا فى العراق من أولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض ، ويقى بعضهم بعضا ، فصاروا كحصن واحد منيع ، بعيد المنال ، وأعاد الفرس تنظيم مسالحهم ، وشحنوا ثغورهم بالجنود . واستعد الطرفان لحرب يشيب من هولها الوليد .

أحس المثنى آلاما شديدة مبرحة من أثر ما أصابه من جراح بالغة فى يوم الجسر وغيره ، فاعتكف بشراف ، وكان يسأل عما إذا كان سعد بن أبى وقاص قد وصل ، واشتد به الألم ، فاستدعى أخاه المعنى بن حارثة ، وأوصاه بزوجه سلمى خيرا ، وراح يذكر له وصيته لسعد ، وطلب منه أن يبلغها إليه ، وبلغ الوجع منتهاه فوهن المثنى ، وتقطعت منه الأنفاس ، ثم لفظ النفس الأخير ، فحزن الناس عليه ، فقد هوى نجم طالما تلألأ ، وخبت شعلة طالما أنارت وبددت دياجير الخطوب .

مات المثنى دون المدائن ، ولم يتمم ما بدأه ، ولم يحقق حلمه الذهبى ، ولكن فليطمئن فى سمائه ، فسيتم سعد كل شيء ، وسيحقق الحلم الجميل .

الفصل الرابع عشر

الرســائل

« الصبر الصبر ، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية » .

(عمر بن الخطاب)

انطلق جيش سعد يغذ فى السير حتى نزل بالقرب من نهر زرود من أرض العرب مما يلى العراق ، وراح يتأهب لاستئناف زحفه ، وقبل الرحيل أمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ، فصار جيشه عظيما بجنده ، عظيما بمن فيه من خيرة الصحابة الذين شاركوا النبى ضعفه وقوته ، وشهدوا معه غزواته وانتصاراته . والتفت سعد حوله ، فوقع نظره على سلمان الفارسى فعادت به الذكريات إلى عهد الرسول ، يوم تحالف يهود خيبر وقريش والقبائل العربية القاطنة بضواحى مكة على المسلمين ، وعقدوا العزم على توجيه الضربة القاضية للإسلام ، فخرجوا فى عشرة آلاف مقاتل ، فبات أمل المسلمين فى النجاة أوهن من بيت العنكبوت ، وراحوا يقلبون وجوه الرأى بينهم ، فاقترح سلمان حفر خندق عميق حول المدينة ، فحفر الخندق ، وبينا كانوا يحفرونه إذ صادفوا كدية شديدة ، استعصت عليهم . فجاءوا النبى فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، وتناول معوله وراح يضرب فتطايرت شرارة ، فهتف النبى ، الله أكبر ! وقال : إنه رأى فى هذه الشرارة أنه أعطى

مفاتيح سورية ، ثم ضربها ضربة فتطايرت شرارة ، فقال إنه رأى فيها أنه أعطى مفاتيح فارس ، ثم ضربها ضربة ثالثة فصارت رملا لا يتماسك ، فقال النبى : إنه رأى فى الشرارة الثالثة أنه أعطى مقاليد اليمن ، مرت هذه الصور جميعها بمخيلة سعد ، فاطمأن قلبه . سينصره اللّه قريبا ، وسيحقق نبوءة نبيه ، فقد تحقق كل ما تنبأ به . فقد أعطيت مقاليد اليمن للمسلمين ، وفتحت سورية ، ولم يبق إلا ملك كسرى .

وبينا كان سعد فى الطريق إذ بلغته رسالة من عمر يقول له فيها : « ابعث إلى فرج (ثغر) الهند رجلا ترضاه ، يكون بحياله ، ويكون ردءا لك من شىء أتاك من تلك التخوم » فنفذ وصية أمير المؤمنين وأنفذ المغيرة ابن شعبة فى خمسمائة ، فكان بحيال الأبلة من أرض العرب .

اصبحت شراف على مدى البصر ، ولم يبق بين جيش سعد وجيش المثنى إلا اليسير ، فراح الجيش القادم يجد فى السير حتى بلغها ونزل بها ، وكان أول ما فعله سعد أن بعث إلى عمر كتابا يبلغه بمنزله ، فجاءه كتاب عمر وفيه : « إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبئهم ومر رؤساء المسلمين فيشهدوا ، وقدرهم وهم شهود . ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم بالقادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله ، واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم » .

وأرسل سعد إلى رؤساء القبائل ، فوافوه ، فقدر الناس ، وقسمهم إلى أقسام كل قسم مكون من عشرة رجال عليهم عريف ، ثم جعلهم فرقا كل فرقة عليها أمير ، ثم عبأهم تعبئة تدل على مهارة ودربة ، فجعلهم طلائع ومجردات (كشافة) ، وميمنة وميسرة ، وقلبا وساقة وردءا (مددا) ، ورجلا (مشاة) وركبانا .

فرغ سعد من تعبئة جيشه ، ووفد عليه المعنى بن حارثة ، وسلمى زوج أخيه وجنود المثنى ، وتقابل المعنى وسعد ، وأخبره بموت أخيه ، وقال له إنه يوصيه بألا يقاتل عدوه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وملؤهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلى أرض العرب . ولما انتهى المعنى من ذكر وصية أخيه ، ترحم سعد على المثنى .

وهم المعنى بالخروج ، ولكن سعد استوقفه وأمره على جند أخيه ، وخطب منه سلمى فوافق .

وأرسل سعد إلى عمر يبلغه ما فعله ، وانتظر رد أمير المؤمنين ، وجاء الجواب : « أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالنية والحسبة ، والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة علمى بما هممتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين . والبلد الذى بينكم وبين المدائن ، صفه كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، ولا تدل بشىء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل بهذا الأمر بما خلف له . فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم » .

تحرك جيش سعد حتى بلغ العذيب ، فنزل بها ووافاه هناك كتاب من عمر ، فنشره وراح يقرأه للجند : « أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحروب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من

المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا إن لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم فى مسيركم حفظة من الله يعلمون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله ، وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل ، لما عملوا بمساخط الله ، كفار المجوس ، ﴿فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا﴾ واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ؛ أسأل الله ذلك لنا ولكم ، وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم . ترفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الأنفس الكراع (الخيل) ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة تكون لهم راحة ، يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل العرب من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق

للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوا ، كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاد ، لا تخص بها أحدا بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حبيت به أهل خصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمم إليك أقاصيك ، وطلائعك ، وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المنازلة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك كصنعه بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه ، لترهب عدو الله وعدوك . والله ولى أمرك ، ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان » .

راح سعد يتأهب للانطلاق إلى القادسية ، فخصص جندا لحراسة الحريم ، وقدم أمامه زهرة بن الحوية . وهم بالمسير إلى القادسية ، وقبل أن يتحرك بعث عيونه إلى الحيرة ليأتوا له بالخبر ، ولما بلغ القادسية ، لم يجد بها خبرا ، فراح يبعث السرايا للغارة والإرهاب ، واتخذ خطة الدفاع كما أمره عمر ، وانتظر أوبة العيون ، ليرسل إلى عمر بمن ولاة الفرس أمرهم .

* * *

نزل القادسية ، فنفر أهل العراق إلى كسرى يزدجرد يستغيثونه . ويخبرونه بنزول العرب ، وتفرق سراياهم للغارة ، وطلبوا منه النجدة والعون ، وقالوا له : « إن أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا » .

أطرق يزدجرد مفكرا فيما يفعل ، فتذكر ما فعلته جيوش العرب بجيوش فارس فى العراق أيام خالد والمثنى ، وانتصارهم المبين فى كل مكان ، فأيقن أن العرب بعد الإسلام ليسوا العرب قبله ، لقد كانوا قبله رعاة إبل فشاءوا بعده

أن يكونوا رعاة أمم ، إنهم جاءوا ليزلزلوا ملكه ، الذى عاد إليه أخيرا ، ولما يتمتع به ، إنه لن يسمح لهم باغتصابه ، وإنه ليذود عنه حتى آخر نسمة من حياته ، فهب من مجلسه ، وراح يقطع قاعة العرش صاعدا هابطا ، مفكرا ثائرا ، وأخيرا قر رأيه على استدعاء رستم ، فأرسل فى طلبه .

دخل رستم على يزدجرد ، فحياه ، وأمره يزدجرد أن يجلس بجواره ، فلما جلس قال يزدجرد :

ــ جاء العرب لمناجزتنا فى عقر دارنا ، وإنى رأيت بصفتك قائد قواد الدولة ، وصاحب الرأى فيها أن أوجهك فى هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم ، وترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله .

فأطرق رستم ، وراح يفكر ، فقد كان يوجس خيفة من هؤلاء المردة ، وكان يحس إحساسا غامضا أن نهايته ستكون على أيديهم ، فرأى أن يقترح على كسرى أن يكون بجواره لتدبير أمور الحرب ، وتستريح الجيوش ، وإقناعه بأن ذلك أجدر من وجوده بساحات الحرب ، فرفع رأسه وقال ليزدجرد بصوت محاولا أن ينم عن الإخلاص والنصيحة :

ــ إن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضربهم بى ، ولعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب ؛ فنكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وإرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشا كثيفا مرة واحدة .

ــ بل لا بد من خروجك يا رستم .

ــ قد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به ، فأنشدك فى نفسك وملكك دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس ، فإن تكن لنا فذلك ، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدا صبرنا

لهم ؛ وقد وهناهم ، ونحن حامون ، فإنى لا أزال مرجوا فى أهل فارس ما لم أهزم .

ــ قد عقدت العزم على خروجك ، وستخرج يا رستم لمحق هؤلاء المعتدين .

ــ أمر مولاى .

وراح رستم يستعد لقتال المسلمين ، فجعل على مقدمه الجالينوس فى أربعين ألفا ، وعلى ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران ، وكتب إلى الرؤساء بإعداد الحصون ؛ والاستعداد للقتال .

عادت العيون التى بثها سعد إليه لتنبئه بخروج رستم لقتاله ، فكتب إلى عمر أن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأعوانه ، وقال له : « فهم يطلبوننا ، ونحن نطلبهم ، وأمر الله ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا ؛ فنسأل الله خير القضاء وخير القدر فى عافية » .

فبعث إليه عمر : قد جاءنى كتابك وفهمته ؛ فإذا لقيت عدوك ، ومنحك الله أدبارهم ، فإنه قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموه ، فاطرحوا الشك ، وآثروا التقية عليه ؛ فإن لاعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا ، فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، فإن الخطأ بالوفاء بغية ، وإن الخطأ بالقدر هلكة ، وفيها وهنكم ، وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم ، وإقبال ريحهم ، واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيئا على المسلمين ، وسببا لتوهينهم » .

وأرسل إليه كتابا آخر : « أما بعد ، لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل النظر

والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم ، وفلجا (نصرا وظفرا) عليهم . واكتب إلى فى كل يوم » .

وتقدمت جيوش رستم حتى نزلت بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون ، وراح سعد ينتخب من سيرسلهم إلى يزدجرد ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية قبل أن تدور الحرب بينهم ، فانتخب نفرا من قادة المسلمين ، ذوى منظر ورأى ، وعليهم مهابة ، ووقع اختياره على النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معد يكرب ، وعاصم بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى ابن حارثة ، وآخرين ، وخرج الوفد قاصدا المدائن .

الفصل الخامس

الوفود

« نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله » .

(النعمان)

خرج الوفد من المعسكر ، وانطلق حتى بلغ رستم ، فتركوا خيولهم ، ودخلوا عليه ، وطلبوا منه مقابلة يزدجرد لعرض شروطهم عليه قبل القتال . ولما كان رستم غير راغب في القتال ، فإنه أرسلهم إلى المدائن ، فساروا في طرقاتها ، مرفوعي الرءوس ، ثابتي الجنان ، وخرج الناس ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة وخبطها على الأرض بأرجلها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غاية العجب ، ويتساءلون كيف تمكن مثل هؤلاء من قهر جيوشهم مع كثير عددها وعددها ؟! واستمر الوفد في طريقه حتى بلغ القصر الكسروى ، فلما علم كسرى بوصولهم ، أمر بحبسهم ريثما يجمع وجوه دولته ويستشيرهم فيما يجيبهم به .

وجلس الملك على عرشه ، يحوطه خدمه وحشمه ، وأعيان القوم ، وأذن للوفد بالمثول ، فدخلوا جميعا شامخي الأنوف ، وعليهم البرود ، وبأيديهم السياط ، وجيء بالترجمان ، فقال له يزدجرد :

ـــ سلهم ما جاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنهم اجترأوا علينا ؟

فالتفت النعمان بن مقرن إلى أصحابه وقال لهم :

ـــ إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء آثرته .

فقالوا :

ـــ بل تكلم .

فقال النعمان :

ـــ إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين ، مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ؛ الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

فظهر الغضب فى وجه يزدجرد ، ولكنه تكلف الهدوء وقال :

ـــ إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ، فيكفونناكم ، ولا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن

كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

فسكت القوم ساعة ، وساد المكان السكون ، إلى أن قال المغيرة :

ـ أيها الملك ، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفحم الأشراف الأشراف . وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبني لأكون الذى أبلغك ، ويشهدون على ذلك أنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالما . فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية ، كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد ، أول من ترب كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له وأتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لا شريك لى ، كنت إذ لم يكن شىء ، وكل شىء هالك إلا وجهى ، وأنا خلقت كل شىء ،



لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى

وإلى يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ، لأحلكم دارى ، دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم ، وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ؛ أو تسلم فتنجى نفسك .

فثار يزدجرد ، وفار الدم فى عروقه ، ولم يستطع كبت عواطفه ، بل قال غاضبا :

— أتستقبلني بمثل هذا ؟

— ما استقبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به .

— لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى .

ثم التفت إلى بعض من حوله وقال :

— ائتونى بوقر تراب .

فجيء بوقر تراب ، فالتفت كسرى إلى من حوله وقال :

— احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

ثم التفت إلى المسلمين وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموا أنى مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم صمت قليلا وأردف :

— من أشرفكم ؟

فطأطأ المسلمون رءوسهم برهة ، ثم تقدم عاصم بن عمرو وقال :

ـــ أنا أشرفهم ، وأنا سيد هؤلاء ، فحملنيه .

ـــ أكذاك ؟

فقالوا جميعا :

ـــ نعم .

حمل عاصم التراب على عنقه ، وخرج به من إيوان كسرى ، وخرج العرب خلفه ، فضحك الموجودون منه ، وما دار بخلدهم إنه خرج بأرضهم .

وضع عاصم التراب أمامه على دابته ، وقفل الوفد عائدا إلى القادسية ، وما إن بلغوها حتى أسرعوا بالدخول على سعد ، وما إن وقع نظر عاصم عليه حتى صاح :

ـــ أبشر ، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

* * *

عاد رستم إلى ساباط ، وأمر قواده أن يصيبوا له رجلا من العرب ، فخرج الجالينوس سرية فى مائة وانطلق إلى القادسية ، وغافل القوم ، واختطف رجلا دون القنطرة ، فاستغاث ، فنفر الناس لنجدته ، ولكن الجالينوس راح ينهب الأرض بجواده ، وجنوده فى أثره ، ولم يستطع المسلمون اللحاق بهم ، وبلغوا عسكرهم ، واقتيد العربى إلى رستم ، فسأله :

ـــ ما جاء بكم وما تطلبون ؟

ـــ جئنا نطلب موعد الله .

ـــ وما هو ؟

ـــ أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم ، إن أبيتم أن تسلموا .

ـــ فإن قتلتم قبل ذلك ؟

— فى موعود الله أن من قتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ؟ وأنجز لمن بقى منا وعده ، فنحن على يقين .

— قد وضعنا إذن فى أيديكم ؟

— ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ما ترى حولك ، فإنك لست تجاول الإنس ، إنما تجاول القضاء والقدر .

فظهر الغضب فى وجه رستم ، وصاح بمن حوله :

— اضربوا عنقه .

* * *

تحركت جيوش رستم ، وسارت حتى نزلت ببرس ، فراح جنوده يسلبون الناس أشياءهم ، ويعيثون فى الأرض فسادا ؛ فشربوا الخمر ، وأتوا النساء ، فضج الناس مما يلقون ، وشكوا إليه ما يلقون فى أموالهم وأبنائهم ، فقام فيهم فقال :

— يا معشر أهل فارس ، والله لقد صدق العربى ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله للعرب فى هؤلاء ، وهم لهم ولنا حرب ، أحسن سيرة منكم . إن الله كان ينصركم على العدو ، ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة ، وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان ، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال ، فلا أرى الله إلا مغيرا ما بكم ، وما أنا بآمن أن ينزع سلطانه منكم .

وانطلق رستم إلى الحيرة ، فلما بلغها دعا وجوه القوم وقال لهم :

— يا أعداء الله ، فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا ، وكنتم عيونا لهم علينا ، وقويتموهم بالأموال .

فصمت القوم ، وساد المكان سكون قاتل ، وأخيرا قال أحدهم :

— أما أنت وقولك أنا فرنا بمجيئهم فماذا فعلوا ، وبأى ذلك من أمورهم

نفرح ؟ إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم ، وما هم على ديننا ، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار . وأما قولك إنا كنا عيونا لهم فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيونا لهم ، وقد هرب أصحابكم منهم ، وخلوا لهم القرى ، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه ، إن شاءوا أخذوا يمينا وشمالا . أما قولك أنا قويناهم بالأموال ، فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا ، إذ لم تمنعونا ، مخافة أن نسبى ، وأن نحرب ، وتقتل مقاتلتنا ، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم ، فكنا نحن أعجز . لعمرى أنتم أحب إلينا منهم ، وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعوانا ، فإنا نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب .

* * *

نزل رستم النجف ، فأرسل سعد طلائعه ، وأمرهم أن يصيبوا رجلا ليسأله عن أهل فارس . فخرج طليحة فى خمسة ، وخرج عمرو بن معد يكرب فى خمسة ، وانطلق الجميع وكانوا يحسبون أنهم سينطلقون حتى النجف ، وما دروا أن العدو قد فصل منها ، وقطعوا فرسخا واحدا ، وهموا بقطع الآخر ، ولكنهم رأوا مسالح العدو ، فقد تحرك العدو ، وأصبح منهم قريبا ، فقال بعضهم :

ـــ ارجعوا إلى أميركم ، فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف ، فأخبروه الخبر .

وقال بعضهم :

ـــ ارجعوا لا ينذر بكم عدوكم .

فقال عمرو :

ـــ صدقتم .

وقال طليحة :

ـــ كذبتم ، ما بعثتم لتخبروا عن السرح ، وما بعثتم إلا للخبر .

ـــ فما تريد ؟

ـــ أريد أن أخاطر القوم أو أهلك .

ـــ ارجع بنا .

ـــ لن أرجع ، سأهجم على معسكرهم .

فلم ير القوم بدا من أن ينطلقوا معه ، وبلغ سعد خبرهم ، فبعث قيس بن هبيرة فى مائة لإعادتهم ، فراح قيس يغذ فى السير حتى بلغهم ، فأمرهم أن يعودوا .

فقال عمرو :

ـــ سنغير على القوم .

ـــ إن الأمير يأمركم بالعودة ، ولكن أين طليحة ؟

ـــ انفصل عنا وراح يشن الغارة وحده .

ـــ إلى العودة .

وعاد الجميع إلى معسكرهم إلا طليحة ، فإنه انطلق حتى دخل عسكر رستم ، وراح يجوسه وينظر ويتوسم . وأقبل الليل ، ولف كل شيء ، وهجع المعسكر ، وقام طليحة ، وراح يدور بعينيه فى المعسكر ، فرأى فرسا ما رأى مثلها قط ، فانتضى سيفه ، وراح يزحف صوب الفرس ، ولما اقترب منها قطع مقودها وضمه إلى مقود فرسه ، ثم امتطى فرسه ، وراح يعود خارجا من المعسكر ، فتنبه الناس إليه ، وخرجوا فى أثره ، وابتدأت المطاردة ، فراح طليحة يطوى الأرض طيا ، وينهبها نهبا ، وثار النقع ، وراحت حوافر الجوادين تضرب الأرض بقوة ، واقترب فارس من الجند منه ، ثم غشيه وبوأ له الرمح ليطعنه ، فعدل طليحة فرسه ، فندر الفارس بين يديه ، فكر عليه طليحة ،

وصوب إليه رمحه ، فقصم ظهره ، واستأنف جريه ، والفرس فى أثره . واقترب منه فارس وسدد له رمحه ، ولكنه لحق برفيقه ، وناله ما ناله . واقترب منه ثالث ، وقد رأى مصرع صاحبيه ، وصوب رمحه لينتقم لهما ، ولكن طليحة عدل فرسه ، فندر الفارس أمامه . وكر عليه طليحة ، ودعاه إلى الإسار . وأيقن الفارس أنه سيقتل ، فاستأسر . فطلب منه طليحة أن يعتلى جواده ، وأن يركض بين يديه ، ففعل . وانطلقا والناس فى أثرهما . ولاح معسكر المسلمين ، فلكز طليحة فرسه ، وفرس أسيره ، فدخلا المعسكر ، ولم يجد الناس بدا من أن يتركوا الأسير ، وأن يقفلوا راجعين .

دخل طليحة على سعد ، فقال له سعد :

ــ ويحك ! ما وراءك ؟

ــ دخلت عساكرهم ، وجستها منذ الليلة . وقد أخذت أفضلهم توسماً . وما أدرى أصبت أم أخطأت . وها هو ذا فاستخبره .

فدعا سعد ترجمانا ، وراح يسأل الأسير عن أحوال الفرس .

فقال الرجل :

ــ أتؤمننى على دمى إن أصدقتك ؟

ــ نعم ، الصدق فى الحرب ، أحب إلينا من الكذب .

ــ أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلى . باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها ، منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى ، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا . إن رجلا قطع عسكرين لا يجترئ عليها الأبطال ، إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند ، وهتك أطناب بيته ، فأنذره فأنذرنا به فطلبناه ، فأدركه الأول فقتله ، وأدركه الثانى فقتله ، ثم أدركته ،

فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم صمت الرجل قليلا ، والتفت إلى طليحة ، وبان الإعجاب فى عينيه .

وسأله سعد :

ــ كم عددكم ؟

ــ الجند عشرون ومائة ألف ، والأتباع مثلهم خدام لهم .

خرج رستم من معسكره ، وسار حتى بلغ قنطرة القادسية ، فتأمل القوم فرأى عسكراً كثيراً ، وراح ينظر حوله فرأى جيشاً لجباً ، فأحس ضيقاً ، وعاد إلى عسكره وهو يفكر فى أمر المسلمين وفى أمره . وأقبل الليل ومد فى ردائه الأسود ، فدخل سريره لينام ، ولكن النوم جافاه ، وراح فكره يعمل وينتقل به من مكان إلى مكان . وانقضى الوقت وئيداً ، وأخذ رستم يتقلب فى سريره ضجراً ، وأخيراً ترفق به ملاك النوم ، فطوقه بذراعيه .

نام رستم ، ولم يكد يستغرق فى نومه حتى رأى فيما يرى النائم ملكاً وأعرابياً يدخلان عسكر الفرس ، وعلم أن الأعرابى هو عمر خليفة المسلمين ، ثم رأى الملك يتجه إلى سلاح فارس فيختمه ثم يحزمه ، ويدفعه إلى عمر . فاستيقظ رستم من نومه ، وأحس قلقاً وتبرماً ، وأخذت الأفكار السود تهاجمه ، وكان يحاول طردها بلا جدوى . وغلبه النوم فنام ثانية ، ولكنه ما لبث أن رأى أعرابياً يدخل عليه ويذبحه ذبح الشاة ، فهب من نومه مذعوراً ، وراح يتحسس رقبته ، واستوى فى سريره وقد طار النوم من عينيه ، وجعل يفكر فى الحرب ، فرأى أن خير ما يفعله الفرس مهادنة العرب .

ولد النهار فخرج رستم من معسكره ، ويمم صوب معسكر المسلمين ، وسار فوق قنطرة القادسية ، وأرسل رجلا إلى زهرة بن الحوية ، فوافاه فراح رستم يحادثه ويعرض عليه جعلا على أن ينصرف عنه ، وقال له :

ـــ أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم فى أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شيء من أرضنا ، وقد كان لهم معاش .

ـــ صدقت ، قد كان ما تذكر ، وليس أمر أولـٰئك ، ولا طلبتنا طلبتهم . إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة . كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب ما فى أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال لنبيه ﷺ : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم ، واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .

ـــ وما هو ؟

ـــ أما عموده الذى لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله .

ـــ وأى شيء أيضاً ؟

ـــ وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى .

ـــ حسن . وأى شيء أيضاً ؟

ـــ والناس بنو آدم وحواء ، أخوة لأب وأم .

ـــ أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر ، وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم . أترجعون ؟

ـــ أى والله . ثم لا نقرب بلادكم أبداً ، إلا فى تجارة أو حاجة .

جمع رستم أشراف أمته وقواده ، وراحوا يتذاكرون ما يفعلون . فقال لهم رستم : أنه يرى أن يرسل إلى سعد ليبعث لهم رجلا من قومه يكلمونه ويكلمهم ، فوافق القوم . وبلغ الرسول معسكر المسلمين ، فرأى سعد أن

يرسل وفدا من ذوى الرأى والنظر ، ولكن ربعى بن عامر قال له :

— إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتهم جميعاً ، يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تزدهم على رجل .

فوافق الجميع على هذا الرأى ، فقال ربعى :

— فسرحونى .

خرج ربعى إلى معسكر رستم ، فلما بلغ القنطرة ، احتبسه الذين عليها ، وأرسلوا لرستم أن رسولا من قبل المسلمين قد أقبل ، فجعل رستم يستعد لملاقاته ، وشاء أن يسلبه لبه بما عنده ، فأمر ببسط البُسـط والنمارق ، ووضع سرير الذهب ، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب ، وتمدد رستم عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

أقبل ربعى على فرس له زباء قصيرة ، ومعه سيف ، كان غمده لفافة ثوب خلق ، ورمحه معلوب بقد . واستمر على فرسه حتى بلغ أدنى البسط ، فقال له من كانوا حول رستم :

— انزل .

فاستمر يسير بفرسه حتى وقفت على البساط ، فنزل عنها وتلفت حوله يبحث عن شيء يربطها به ، فلم يجد إلا وسادتين مزركشتين ، فشقهما ، وأدخل الحبل فيهما ، ثم ربط الفرس . ونظر إليهم ، فلم يجد من يحاول أن يمنعه ، فأيقن أنهم أرادوا أن يروه التهاون ، فهب واقفاً ، وتقدم نحو رستم ، فقالوا له :

— ضع سلاحك .

— إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم ، وأنتم دعوتمونى ، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت .

وبلغ رستم مقالته فقال :

ــ ائذنوا له ، هل هو إلا رجل واحد ؟

فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه ، وشاء استحراجهم ، فراح يعمل رمحه فى النمارق والبسط وهو سائر ، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده ، وتركه متهتكا مخرقا ، فلما دنا من رستم التف به الحرس ، فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط . وعرض عليه رستم الجلوس بالقرب منه فقال :

ــ إنا لا نستحب القعود على زينتكم .

ــ ما جاء بكم ؟

ــ الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك منا قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا . ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله .

ــ وما موعود الله ؟

ــ الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

ــ قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

ــ نعم . كم أحب إليكم . أيوما أم يومين ؟

ــ لا . بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

ــ إن مما سن لنا رسول الله ﷺ ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : اختر الإسلام ، وندعك وأرضك ؛ أو الجزاء فنقبل ونكف عنك . وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه : وإن كنت إليه محتاجا منعناك ؛ أو المنابذة فى اليوم الرابع . ولسنا

نبدأك فيما بيننا وبين اليوم إلا أن تبدأنا . أنا كفيل بذلك على أصحابى ، وعلى جميع من ترى .

— أسيدهم أنت ؟

— لا . ولكن المسلمين كالجسد بعضُهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .

فاختلى رستم برؤساء أهل فارس وراح يحادثهم ، ثم عادوا إلى الأعرابى ، وجعل أحدهم يسخر من سيفه ، ومن غمده الخلق . فأخرج سيفه من خرقته كأنه شعلة نار ، ثم غمده ، وقال لهم وهو ينصرف :

— انظروا إلى الأجل .

وخرج وتركهم فاغرى أفواههم من الدهشة .

رأى رستم أن يمد فى حبل المفاوضة بينه وبين المسلمين ، لعله يوفق إلى تحاشى حربهم . إنه ليحس إحساساً غامضاً أن الدائرة ستدور عليهم إن قاتلوهم ، وإنه ليفزع كلما تذكر رؤياه التى أقضت من مضجعه . ليته يستطيع أن يمنع هذه الحرب البشعة التى تلوح له بوجهها البغيض بين لحظة وأخرى ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن ، فانطلق حذيفة على جواده حتى بلغ أدنى بساط رستم ، فقيل له :

— انزل .

— ذلك لو جئتكم فى حاجتى ، فقولوا لملككم أله الحاجة أم لى ، فإن قال لى فقد كذب ، ورجعت وتركتكم ، فإن قال له لم آتكم إلا على ما أحب .

وبلغت رسالة حذيفة إلى رستم ، فقال :

— دعوه .

فتقدم بجواده ، حتى أصبح بالقرب من سرير رستم . فالتفت إليه رستم وقال له :

— انزل .

— لا أفعل .

— ما بالك جئت ، ولم يجىء صاحبنا بالأمس .

— إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء . فهذه نوبتى .

— ما جاء بكم ؟

— الله عز وجل من علينا بدينه ، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين . ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبلنا : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة .

— أو الموادعة إلى يوم ما ؟

— ثلاثا من أمس .

وتركهم وخرج ، فراح أشراف فارس يتشاورون ، وجعلوا يعجبون من هؤلاء القوم الذين يحادثون رستم كما يحادثون عبدا من العباد . إنهم يعرفون رستم ومكانته ، فما بالهم لا يوقرونه ويبجلونه ؟! إنهم يتحدثون عن النصر تحدثهم عن اليقين ، وإنهم به لمؤمنون ، وكأنهم اطلعوا على الغيب فرأوا فيه نصرهم مسطرا ، وظفرهم أمرا مقدرا لاشية فيه . ومضى الليل على رستم كأسوأ ما يمضى ليل ، وفى الصباح أرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلا ، فأنفذ لهم المغيرة بن شعبة ، وسار المغيرة حتى دخل على القوم ، وكانوا فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، ورأى رستم جالسا على سريره ، فاتجه إليه وجلس معه على سريره ، فأسرع الحرس إليه وأنزلوه فالتفت إليهم فى استخفاف ، وأجال نظره فرأى عبيدا كثيرين ، فقال الداهية ، وكأنما شاء أن يبذر بذور الفتنة بينهم :

ـــ كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نواسي ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول .

فهمهم العبيد برهة ، وراح رؤساء القوم ينظرون بعضهم إلى بعض ، ورأى رستم أن ينقذ الموقف بحصافته ، فمازح المغيرة وقال له :

ـــ إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك .

ثم أردف :

ـــ ما هذه المغازل التى معك ؟

ـــ ما ضر الجمرة (السيف) ألا تكون طويلة .

ـــ وما بال سيفك رثا ؟

ـــ رث الكسوة حديد المضربة .

ـــ كنتم أهل قشف ، ومعيشة سيئة ، لا نراكم شيئا ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم ، وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من جهد فى بلادكم . فأنا آمر لأميركم بكسوة ونعل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم أو آسركم .

ـــ ليس أمامك إلا الإسلام أو الجزية أو السيف .

فاستشاط غضب رستم ، وأيقن ألا مفر من القتال ، فأقسم :

ـــ والشمس ، لا يرتفع لكم الصبح غدا حتى أقتلكم أجمعين .

الفصل السادس عشر

الإنذار الأخير

« والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم » .

أرسل عمر إلى سعد يستحثه على قتال القوم ، فقد تصرمت الشهور ، ولم يقع قتال بعد ، وأرسل يزدجرد إلى رستم يأمره بمناجزة القوم ، فتأهب سعد ، وأرسل إلى رستم الإنذار الأخير ، أرسل إليه ثلاثة من ذوى الرأى ، فلما دخلوا عليه قالوا له :

ـــ إن أميرنا يقول لك : إن الجوار يحفظ الولاء ، وإنى أدعوك إلى ما هو خير لنا ، ولك العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك ، وبعضنا من بعض ، إلا أن داركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا ، وكنا لكم عونا على أحد إن أرادكم ، أو قوى عليكم . واتق الله يا رستم ولا يكونن هلاك قومك على يديك ، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك .

ـــ إنى قد كلمت منكم نفرا ولو أنهم فهموا عنى ، رجوت أن تكونوا قد فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثير من البيان ، وسأضرب لكم مثلكم : إن الذباب إذا رأى عسلا طار ، وقال : من يوصلنى إليه ، وله درهمان ، حتى يدخله ، لا ينهه أحد إلا عصاه ، فإذا دخله غرق ونشب وقال : من يخرجنى له أربعة دراهم . وإنما مثلكم مثل ثعلب دخل جحرا وهو مهزول ضعيف إلى كرم ، فكان فيه يأكل ما شاء الله ، فرآه صاحب الكرم ، ورأى ما به فرحمه ،

فلما طال مكثه فى الكرم وسمن ، وصلحت حاله ، وذهب ما كان به من هزال ، أشر فجعل يعيث بالكرم ، ويفسد أكثر مما يأكل ، فاشتد على صاحب الكرم ، فقال : لا أصبر على هذا من أمر هذا ، فأخذ له خشبة واستعان عليه غلمانه ، فطلبوه ، وجعل يروغهم فى الكرم . فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه ، ذهب ليخرج من الجحر الذى دخل منه ، فنشب ، اتسع عليه وهو مهزول ، وضاق عليه وهو سمين ، فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم ، فلم يزل يضربه حتى قتله . وقد جئتم وأنتم مهازيل ، وقد سمنتم شيئا من سمن ، فانظروا كيف تخرجون .

إن رجلا وضع سلا ، وجعل طعامه فيه ، فأتى الجرذان ، فخرقوا سله فدخلوا فيه ، فأراد سده ، فقيل له : لا تفعل ، إذن يخرقنه ، ولكن انقب بحياله ، ثم اجعل فيهما قصبة مجوفة ، فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة وخرجن منها ، فكلما طلع عليكم جرذ قتلتموه ، وقد سددت عليكم ، فإياكم أن تقتحموا القصبة ، فلا يخرج منها أحد إلا قتل .

فقال أحد المسلمين :

ـــ والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم ، وأما ما ضربتم لنا من الأمثال ، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل ، ولكنا سنضرب مثلكم : إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضا ، واختار لها الشجر والحب ، وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فخلا الفلاحون فى القصور على ما لا يحب ، وفى الجنان بمثل ذلك ، فأطال نظرتهم ، فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم ، استعتبهم ، فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجوهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً .

الفصل السابع عشر

القادسية

يوم أرماث

﴿ لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ .

(قرآن كريم)

أحس سعد بألم شديد ، إن به عرق النسا ، ودماميل تمنعه من الجلوس . إنه لا يستطيع أن يركب أو ينزل إلى أصحابه ، وجاءه رسول رستم يسأله ، إما أن يعبر لهم ، وإما أن يتركهم يعبرون ، فقال سعد له : بل اعبروا أنتم . وخرج الرسول ، وأحس سعد ضيقا ، إنه لن يستطيع أن يشترك فى أول معركة بينه وبين الفرس ، إنه ليود أن يقابل المشركين كما قابل مشركى مكة فى بدر وأحد ، وأن يضرب بقوة ، ويصول ويجول كما ضرب وصال وجال فى تلك الأيام الخوالى . وعاد الخيال به القهقرى ، فتذكر يوم أحد ، يوم ثبت مع النبى يذب عنه ، ويوم قال له النبى الحبيب : ارم أيها الغلام الحزور فداك أبى وأمى . فثار الدم فى عروقه ، وراح يتململ فى مرقده . ليته يستطيع أن يقف على قدميه ، إذن لنزل إلى أصحابه ، ولحادثهم ولشاورهم فى الأمر . وأرسل إلى خالد بن عرفطة ، واستخلفه على الناس .

علم المسلمون أن سعداً لن يشترك فى المعركة ، فأخذوا يتنادرون به ، وأعلموا أنه استخلف خالد بن عرفطة ، فاختلفوا عليه . وبلغ سعدا أن الناس يتغامزون عليه ، وأنهم يسخرون به ، وأن الناس اختلفوا على خالد فاستشاط غضبه ، وقال لبعض من حوله : احملونى وأشرفوا بى على الناس فحملوه فأكب مطلعا عليهم من سطح القصر ، فلما رأى الناس ما به من وجع عذروه ، وقال :

ــ أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم .

فقال جرير :

ــ أما إنى بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر ، وإن كان عبدا حبشيا ، فقال سعد :

ــ والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ، ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سنة يؤخذ بها من بعدى .

وقتلت الفتنة فى مهدها ، قبل أن تشتد وتقوى فيستفحل خطرها ، وراح سعد يوصى القوم بعد ذلك ، فراح يخطبهم من قصره ، وهو مكب على وجهه :

ــ إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ . إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونهم ، وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع وأنتم وجوه العرب ، وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا ، وترغبوا فى الآخرة ، جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تقعدوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم .

وثارت حمية الرؤساء ، فقام عاصم بن عمرو يخطب القوم :

ـــ هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها وأنتم تنالون منهم ثلاث سنين ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن ، فلكم أموالهم ونساؤهم وبلادهم ، وإن خرتم وفشلتم ، والله لكم من ذلك جار وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك . الله الله اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها ، أوَ لا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس فيها خمر ولا وزر يعقل إليه ولا يمتنع به ، اجعلوا همكم الآخرة .

وأرسل سعد إلى ذوى الرأى والنجدة والشعر ، فوافاه المغيرة وحذيفة وعاصم ، وطليحة وغالب وعمرو بن معد يكرب والحطيئة الشاعر وغيرهم فلما دخلوا عليه . قال لهم :

ـــ انطلقوا ، فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم عند مواطن اليأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال .

فخرجوا من عنده وقد عزموا على إثارة حمية القوم ، وحثهم بأحسن ما فيهم ، فلما بلغوا الناس ، وقف قيس بن هبيزة يخطب :

ـــ أيها الناس ، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء الله ، وارغبوا إليه فى عاداته . فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء ، والأرض القفر ، والظراب الخشن والفلوات التى لا يقطعها الأدلة .

وتقدم غالب وقال :

ـــ أيها الناس ، احمدوا الله على ما أبلاكم ، وسلوه يزدكم ، وادعوه يجبكم . يا معشر معد ، ما علتكم اليوم ، وأنتم فى حصونكم (خيلكم) ، ومعكم من لا يعصيكم (سيوفكم) . اذكروا حديث الناس فى غد ،فإنه بكم غداً يبدأ عنده ، وبمن بعدكم يثنى .

وتقدم ابن الهذيل الأسدى وقال :

ـــ يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم ، وتربضوا لهم تربض النمور ، وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله وغضوا الأبصار ، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة ، فأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها يؤذن فيما لا يؤذن للحديد فيه .

وتقدم بسر وقال :

ـــ احمدوا الله ، وصدقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ، ووحدتموه ولا إلـٰه غيره ، وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن ألا وأنتم مسلمون . ولا يكونن شيء أهون عليكم من الدنيا . فإنها تأتى من تهاون بها . ولا تميلوا إليها ، فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقام عاصم بن عمرو وقال :

ـــ يا معشر العرب ، إنكم أعيان العرب وقد صمدتم للأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيئاً على العرب غدا .

* * *

اهتم يزدجرد بأمر هذه الوقعة اهتماما عظيما ، وما كان يطيق أن ينتظر الأنباء حتى تصل إليه ، بل شاء أن تبلغه أولا بأول ، فوضع رجلا على باب إيوانه ، ووضع آخر بخارج الدار ، ووضع ثالثا على بعد من الثانى بحيث يسمع

ما يهتف به ، ووضع رابعا وخامسا وسادسا وهكذا حتى بلغ الرجال ميدان القتال ، فلما نزل رستم ، صاح من فى الميدان :

— نزل رستم .

فصاح من يليه :

— نزل رستم .

فصاح من بعده :

— نزل رستم .

واستمر هذا الخبر ينتقل من رجل إلى آخر حتى بلغ مسامع يزدجرد ، وراح من فى الميدان يصف ما يحدث أمامه ، والرجال يتصايحون بما يصف ، راح يضيح :

— رستم يلبس درعين ومغفرا ، ومعه سلاحه ، إنه يأمر بفرسه ، قد أوتى بها ، رستم يقفز فإذا هو على فرسه لم يمسها ، رستم يضع رجله فى الركاب ، رستم يلتفت إلى من حوله ويقول :

— سندقهم دقا .

رستم يتحرك إلى ميدان القتال ... رستم يعبئ فى القلب ثمانية عشر فيلا عليها الصناديق والرجال .. وفى المجنبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال . الجالينوس بينه وبين ميمنته ، والبيرزان بينه وبين ميسرته ... القنطرة بين خيلين من خيولنا وخيول المسلمين .. الأعداء يأخذون مصافهم .

واستمر من فى الميدان يصف ما يحدث أمامه ، فتبلغ الأنباء يزدجرد وهو فى إيوانه .

* * *

راح سعد يطل على ساحة القتال من قصره وما كان بمستطيع التحرك ، فقد كان منكفئاً على صدره ، وكان القصر مفتوحا لا باب له . فلو أن المسلمين هزموا ، ودارت عليهم الدوائر لأخذ سعد أخذاً ، ولكنه لم يقم لذلك وزنا ، وكان همه الأعظم أن يدير المعركة من مكانه ، وأن يبذل ما فى وسعه حتى ينتصر المسلمون ، فيعوض ما فاته من الاشتراك فى المعركة . وصاح من مكانه :

ـــ الزموا مواقفكم . لا تحركوا شيئا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد غيركم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة ، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأرسلت أم إلى أبنائها الأربعة ، الذين كانوا فى جيش المسلمين ، فدخلوا عليها وسلموا ، فقالت لهم :

ـــ إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تثربوا ، ولم تنب بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة ، فوضعتموها بين أيدى أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالظهر ، فخرجوا من عندها ، لينضموا إلى إخوانهم المصلين ، وليسألوا الله نصره وتأييده ، ولما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء . وقالت مبتهلة إلى الله :

ـــ اللهم ادفع عن بنى .

وقضيت الصلاة ، وسرى صوت سعد :

ــ الله أكبر .

فكبر الناس خلفه ، فارتج المكان ، وأسرعوا إلى صفوفهم ، ومرت مدة ثم هتف سعد :

ــ الله أكبر .

فتهيأ الرجال للنزال ، واستتموا عدتهم ، وانتظروا سماع التكبيرة الثالثة ليبرز أهل النجدات . ولم ينقض كبير وقت حتى كبر سعد التكبيرة الثالثة ، فكبر الناس خلفه ، وخرج غالب بن عبد الله يطلب الطعن والنزال ، فبرز له هرمز ، وكان متوجا ، عليه ثياب جياد ، فدارا كليثين كاسرين ، وتبادلا الضربات ، وكان كل يتقى ضربات خصمه ، واستمر القتال بينهما وكان غالب يشد على غريمه ، وبان على هرمز الإعياء ، وحام الموت فوقه ، وأحس هرمز باقتراب الموت إليه ، فسلم ، فأسره غالب ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، وقاد غالب هرمز أمامه حتى بلغ القصر وسلمه إلى سعد ، وعاد إلى الميدان لاستئناف الضرب والقتال .

وخرج عاصم بن عمرو ، وخرج له رجل من أهل فارس ، وما كادوا يتبادلان الضربات حتى فر الفارسى ، فجد عاصم فى أثره ، واختفى الرجل فى صفوف الأعداء ، ولمح عاصم رجلا معه بغلة ، فمال نحوه ، فلما لمحه الرجل ورأى سيفه يطل منه المنون ، فر منزعجاً تاركا البغلة وما عليها ، فاستلبها عاصم ، وعاد بها إلى سعد ، ولما فحص ما تحمل وجد أطعمة فاخرة ، لقد كان الرجل خباز رستم ، فأمر سعد بتوزيعها على الجند .

وبينا الناس فى انتظار التكبيرة الرابعة ، ليشدوا النواجذ على الأضراس ، ويحملوا على القوم ، كان عمرو بن معد يكرب يحضض الناس بين الصفين .

وبرز رجل من الفرس ، وراح يسدد سهامه صوب المسلمين فما أخطأت سية قوسه وهو متنكبها ، وارتطم سهم من سهامه بدرع عمرو بن معد يكرب ، فثار عمرو ، وخرج إليه ، وانقض عليه انقضاض وحش كاسر ، فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله بين يديه ، وسار به حتى بلغ صفوف المسلمين ، فوضعه وكسر عنقه ، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ، ثم ألقاه ، والتفت إلى قومه وقال :

ـــ هكذا فاصنعوا بهم .

فقال بعضهم :

ـــ يا أبا ثور من يستطيع أن يصنع كما تصنع ؟

وقفت بجيلة تستعد للقتال ، وراح جرير بن عبد الله البجلي يحرض قومه ، ووجه رستم إليهم ستة عشر فيلا ، عليها التوابيت ، وكان على كل فيل عشرون راكبا . وارتفع صوت سعد بالتكبيرة الرابعة ، ولما صكت آذان المسلمين كبروا خلفه ، وتزاحفوا ليقاتلوا فى سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

حمل أصحاب الفيلة على بجيلة ، ففرقت بين الكتائب ، وذعرت الخيل فنفرت ، ودبت الفوضى بينهم ، فراح بعضهم يولى الدبر ، وكان سعد يشرف على المعركة من سطح قصره ، وبجواره سلمى التى تزوجها بعد موت المثنى زوجها ، وأخذا يشاهدان ما أصاب بجيلة ، فتململ سعد ، وبان الضيق فى وجهه ، ورأت سلمى فرار الخيل ، فصاحت :

ـــ وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم .

فضاق سعد ذرعاً ، وأحس كأنها لطمته لطمة قاسية ، فما أقعده عن القتال إلا ما به ، فلم يشعر إلا وهو يلطم وجهها ، فظهر الحنق فى وجهها ، وشاءت أن تقتص منه ، وأن تنال من كبريائه كما نال من كبريائها ، فقالت له :

ـــ أغيرة وجبنا ؟!

وتركته وانصرفت .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر تحت بصره ، فرأى بجيلة تكاد أن تؤكل ، فأرسل إلى بنى أسد :

ـــ ذيبوا عن بجيلة ومن لافها من الناس .

فقام طليحة بن خويلد يستحث قومه ، فصاح :

ـــ يا عشيرتاه ، إن المنوه باسمه الموثوق به ، وأن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدئوهم الشدة ، وأقدموا عليهم أقدام الليوث الحربة ، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله . شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا . لله در ربيعة ، أى فرى يفرون ، وأى قرن يعنون ، هل يوصل إلى مواقفهم ، فأغنوا عن مواقفكم ، أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله .

فشد القوم ، وانطلقوا لشد أزر بجيلة ، وراحوا يطعنون الفيلة ، ولكن الفيلة كانت تشيع الفوضى بينهم ، وبرز فارس لطليحة ، فراحا يقتتلان ودار بينهما قتال رهيب بين صهال الخيل النافرة ، وتكبيرات المسلمين المدوية ، وسدد طليحة إليه ضربة قاتلة ، فأرداه مجندلا يخبط فى دمه ، وانضم إلى إخوانه ليذب عنهم ، ولكن الفيلة راحت تمزق صفوف المسلمين تمزيقا .

رأى الأشعث بن قيس ما تفعل الفيلة ببجيلة وبنى أسد ، فشاء تحريض قومه ليهبوا لنصرتهم ، فقام وقال :

ـــ يا معشر كندة ، لله در بنى أسد ، أى فرى يفرون وأى هذ يهذون عن موقفهم . منذ اليوم أغنى كل قوم وما يليهم ، وأنتم تنظرون من يكفيكم البأس . أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم العرب منذ اليوم ، وإنهم ليقتلون ، ويقاتلون ، وأنتم جثاة على الركب تنظرون .

فثار الغضب فيهم ، ووثب إليه عدد منهم ، وقالوا محنقين :

— عثر الله جدك ، إنك لتؤيسنا جاهدا ، ونحن أحسن الناس موقفا ، فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا أسوتهم ، فها نحن معك .

فانطلق وانطلقوا معه ، يهاجمون الفيلة ومن عليها ، ورأى الفرس ما تلقى الفيلة من المسلمين ، فى هذه الناحية ، فانضم ذو الحاجب والجالينوس بمن معهم إلى هذه الناحية ، فدارت رحى معركة رهيبة ، معركة لا شفقة فيها ولا لين ، فقد عزم المسلمون على إعلاء كلمة الله ، وأخذ الفرس يذبون عن الوطن الحبيب ، عن الأنفس والأهل والديار ؛ واستمرت المعركة قاسية هائلة ، واستمرت الفيلة تعمل عملها الرهيب ، فأحس سعد فى مكانه بخطرها على أصحابه ، وراح يدور بعينيه فى الميدان يبحث عمن يرسله إليها ليريحه منها ومن أهوالها ، فلم يجد إلا بنى تميم كفوا لها ، فأرسل إلى عاصم بن عمرو يقول له أن يكفه هذه الفيلة ، فوقف عمرو وقال :

— يا معشر بنى تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟

— بلى والله .

ونادى قوما من الرماة وقال لهم :

— يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ؟

ونادى قوما آخرين وقال لهم :

— استدبروا الفيلة واقطعوا وضنها .

فشد الرماة قسيهم ، وأخذت السهام تتطاير فى الجو ، وتثبت فى صدور الرجال الراكبين الفيلة ، وتسلل من انتدبهم عمرو حتى أصبحوا خلف الفيلة ، وراحوا يزحفون بحذر حتى اقتربوا منها ، فأخذوا بأذنابها ، وذباذب توابيتها فقطعوا وضنها ، فسقط من فى التوابيت ، فارتفع صياحهم ، وراحت

الفيلة تدوس فيمن وقع ، وفرت الفيلة . وشاع الاضطراب فى صفوف الفرس ، وخف الضغط على أسد وبجيلة ، وراح الناس يعتورون القتال ، ويتبادلون الضرب والطعان ، ويصولون ويجولون ، وسعد فى قصره مشرف على القوم ، يدعو الله أن يؤيد دينه ، ويتم نصره .

مالت الشمس نحو الأفق ، والمعركة ، دائرة على أشدها .. لم يظهر فريق ، وأخذت الشمس فى المغيب ، حتى أغمض الأفق البعيد جفنه عليها ، وأخذت المعركة تخف شيئاً فشيئا ، حتى توقف الفريقان ، وراحا يتأهبان لاستئنافها مع الصباح .

انتظرت الأم العجوز أوبة أولادها الأربعة ، فلما عتمت الدنيا دخلوا عليها جميعاً سالمين ، فحمدت الله وراحت تحثهم على استئناف القتال فى اليوم التالى أشد عزما ، وأوثق أملا ؛ واتجهوا ليناموا على أن يهبوا مع الصباح لاستئناف قتال المشركين .

الفصل الثامن عشر

يوم أغواث

ارتفعت الشمس فهب الإخوة الأربعة من نومهم ، وحملوا سلاحهم وخرجوا لينضموا إلى إخوانهم ، وقبل أن ينطلقوا أخذت أمهم تذكرهم بأحسن ما فيهم ، وتدعوهم لقتال المشركين بعزم صادق ، وقلب ثابت ، فإن ظهروا كان النصر المبين ، وإن ماتوا فإلى جنات النعيم ، مع الشهداء والقديسين . ولما غابوا عن عينيها ، رفعت يديها إلى السماء تبتهل إلى الله ألا يفجعها فيهم ، وأن يعيدهم إليها سالمين .

انطلق الإخوة الأربعة إلى ميدان القتال ، فوجدوا المسلمين على تعبئة ، وكان بعض الرجال ينقلون الشهداء إلى العذيب ، وبعضهم ينقلون الرثيث إلى النساء يقمن عليهم ، فانضم الإخوة إلى كتيبتهم ، واستعدوا لسماع الأمر بالزحف ليتزاحفوا ، وبينا كان المسلمون يتأهبون للقتال ، إذ لمحوا فارسا يطوى الأرض طيا ، وينهبها نهبا ، وينطلق وينطلق كالشهاب نحوهم ، فتطلعوا إليه ، ولما اقترب منهم ترجل عن فرسه ؛ فصاح بعضهم :

ـــ إنه القعقاع بن عمرو .

وقال آخرون :

ـــ هذا من قال أبو بكر عنه : لا ينهزم جيش فيهم مثل هذا .

وسلم القعقاع على الناس وسأل عن سعد ، فلما علم بمرضه وأنه فى القصر ، اتجه إليه ، وصعد فألفى سعدا على بطنه ينظر إلى ميدان القتال

فسلم عليه ، وقال له :

ـــ أرسل عمر إلى أبى عبيدة كتابا بصرف أهل العراق أصحاب خالد مددا لك ، فسرح أبو عبيدة ستة آلاف ، وأمر عليهم ابن أخيك هاشم بن عتبة ، فأمرنى هاشم على مقدمته ، فرأيت أن أسرع لأبشركم بالمدد العظيم .

ـــ إنه النصر إن شاء الله .

ـــ قد عهدت إلى أصحابى الذين معى أن يتقطعوا أعشارا ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا فى آثارهم عشرة ، وإنى لآمل أنه كلما وصلت جماعة إلى القتال مكبرة ، زلزلت الأعداء زلزالا .

فبان البشر فى وجه سعد ، وسرى الأمل الدفىء فى صدره ، وخرج القعقاع إلى الناس وخطبهم .

ـــ يا أيها الناس ، إنى قد جئتكم فى قوم والله أن لو كانوا مكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وتقدم القعقاع للمبارزة ، وانتشت أفئدة المسلمين ، إن المدد قريب ، وسينضم إليهم ويشد أزرهم ، وسيظهرهم الله على عدوه وعدوهم ، وسينصرهم نصرا مؤزرا .

وتقدم القعقاع من صفوف الأعداء وهتف :

ـــ من يبارز ؟

فخرج إليه فارس عليه ثياب موشاة ، تعلوه مهابة ، ويدل مظهره على أنه من وجوه القوم ، فسأله القعقاع :

ـــ من أنت ؟

— أنا بهمن جاذويه .

فصاح القعقاع :

— يا لثارات أبى عبيد ، وسليط ، وأصحاب يوم الجسر .

وانقض عليه ، وضربه ضربة ، أتقاها جاذويه ، وأخذا يحومان حول بعضهما ويتبادلان الضربات ، ويتفاديانها بحذق ومهارة ، وأخيرا سدد القعقاع ضربة قاتلة ، فسقط جاذويه قتيلا ، وبرز القعقاع ثانية وصاح :

— من يبارز ؟

فخرج البيرزان والبندوان ليقتصا لجاذويه ، وخرج الحارث بن ظبيان لينضم إلى القعقاع ، واتجه القعقاع إلى البيرزان ، والحارث إلى البندوان ، وراح سعد يتطلع إلى هذه المبارزة ، وكان اهتمامه بها عظيما ، فلو أن القعقاع والحارث انتصرا لخسر جيش الفرس قائدين عظيمين من قوادهم . ودار القتال ، وثار النقع ، وأخذ صوت تقارع السيوف يقرع الآذان ، فيثير الحواس جميعا ، ويجعل الحماسة تفور فى الصدور ، وكتم سعد أنفاسه ، فقد بلغت المبارزة أقصاها ، ها هو القعقاع يحمل على البيرزان حمله صادقة ، وها هو سيفه يرتفع فى الهواء ثم يهوى على عدوه فيذرى رأسه ، وشد الحارث على غريمه وضربه ضربة انتهى بها كل شىء ، فأحس سعد راحة ، إنها بداية طيبة . ونظر إلى معسكر الأعداء ، فلم يجد الفيلة ، فقد تكسرت توابيتها بالأمس ولم يتم علاجها بعد ، فحمد سعد الله ، وأمر الناس أن يستعدوا للزحف .

وأخذ جرير يحرض قومه ، وعاصم بن عمرو يحضهم بأحسن ما فيهم ، وعمرو بن معد يكرب يحثهم على قتال المشركين ، وقال القعقاع :

— يا معشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها .

وارتفعت تكبيرة سعد تشق الفضاء فتزاحف الناس ، وراح المسلمون

يضربون ويضربون ، ووردت الجماعة الأولى من خيل القعقاع مكبرة مهللة ، فكبر المسلمون خلفهم ، ودب النشاط فيهم وأخذوا يقاتلون وقد انتعشت نفوسهم ، ووردت الجماعة الثانية والثالثة والرابعة ، واستمر ورود الجماعات طوال اليوم ، فشد ذلك من أزر المسلمين ، وفت فى عضد الأعداء ، فأكثر المسلمون فيهم القتل .

بلغ أصحاب القعقاع الميدان وكانوا على إبل ، قد ألبسوها فهى مجللة مبرقعة ، وأطافت بهم خيولهم يحمونهم ، وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيلهم بين الصفين ، فحملوا عليهم ، فأخذت خيول الفرس تنفر من الإبل ، كما نفرت خيول المسلمين من الفيلة أمس ، فدبت الفوضى فى صفوف الفرس ، ورأى رجل ممن يحمى الإبل رستم ، فشاء أن ينطلق إليه ، وراح يقتل كل من يقف فى طريقه ، وأصبح على بعد خطوات منه ، ولكنه سقط قتيلا دونه .

انقضى النهار ، وأقبل الليل ، ولكن المعركة لم يخب لها أوار ، فقد رأى المسلمون انتصارهم الباهر ، فشاءوا أن يستمر النزال ، حتى يقضى الله أمره ، واستمر سعد مكبا من فوق القصر ينظر ، فرأى رجلا على فرس بحيال الميمنة يكبر ثم يحمل على ميسرة الأعداء يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، ثم يرجع من خلف المسلمين إلى الميسرة ، فيكبر ويحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، وأخذ يقصف الأعداء قصفا منكرا ، فتعجب سعد من أمره ، وتفرس فى الفرس وغمغم :

ـــ إنها فرسى البلقاء ولولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن .

وتطلع مدد القعقاع إلى هذا الفارس المغوار ، وقال بعضهم :

ـــ أوائل أصحاب هاشم .

وقال بعضهم :

ــ بل هاشم نفسه .

واستمر الفارس يصول ويجول ، ويلعب برمحه وسلاحه ، والناس به جد معجبين ، فقال أحدهم :

ــ إن كان الخضر يشهد الحروب لكان صاحب البلقاء الخضر نفسه ، وقال آخر :

ــ لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : ملك من السماء .

واستمرت المعركة رهيبة ، وانتصف الليل ورحاها دائرة ، وقصف السيف يدوى فى الليل ، فيمزق سكونه ؛ وانتصبت الأم العجوز فى خيمتها ، تبتهل إلى الله أن يعيد إليها أبناءها سالمين ، وأحست قلقا ، وشعرت بالخوف يهزها ، لقد انتصف الليل ولم يعودوا ، ترى ما دهاهم ، هل استشهدوا جميعا ، أم امتدت المعركة دون توقف ؟ واستمرت الهواجس تهجس فى صدرها ، وراح الشيطان يوسوس لها ، ويلعب بها كما يلعب القط بغريمه قبل أن يجهز عليه ، ولكنها لم تسترسل فى أحلامها ، ولم تترك نفسها فريسة طيعة لشيطانها ، بل تعوذت من الشيطان الرجيم ، ثم ذهبت وتوضأت ، وراحت تصلى لله فى هجعة الليل ، فشاعت الطمأنينة فى نفسها وعاد إليها هدوؤها ودعتها ، وأتمت صلاتها ، فجعلت تقرأ ما تيسر من القرآن ، وسمعت وقع أقدام فى الخارج ، فتطلعت نحو مدخل الخيمة ، فرأت أشباحا أربعة ، يتقدمون منهوكين متعبين ، فهزها السرور . وبانت عليها الغبطة ، فأسرعت إليهم نشطة خفيفة ، كأنما قد عادت إلى العشرين . لقد عادوا إليها جميعا سالمين ، وناموا ليأخذوا قسطهم من الراحة ليهبوا أكثر نشاطا ، وأقوى عزما لقتال المشركين .

الفصل التاسع عشر

يوم عمواس

نام الناس جميعاً ، إلا القعقاع ورجاله ، فإنه لما رأى أن جيش هاشم لم يصل بعد خشى أن يفت ذلك فى عضد المسلمين ، فراح يسرب أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس ، ثم قال لهم :

ــ إذا طلعت لكم الشمس ، فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجدا .

وخرج رجال القعقاع ، واتجه هو ليهجع ويستريح حتى يستطيع أن يستأنف فى الغد قتاله ، وقد دارت نفس الفكرة فى رأس عاصم بن عمرو فأرسل رجاله فى الناحية الأخرى ، وأمرهم أن يفدوا إلى ميدان القتال جماعات ، فيفت ذلك فى عضد الأعداء .

استمر رجال القعقاع فى السير ، وقبل أن يبلغوا مكانهم المقصود ، قابلوا هاشماً وأصحابه ، فأخبروه برأى القعقاع وما صنع ، فعبأ هاشم رجاله سبعين سبعين ، وأمرهم أن يغذوا فى السير ليشدوا أزر إخوانهم .

تجلى النهار ، فأخذ الناس مواقفهم ، وراح سعد يجول فى الميدان بنظره ، فرأى الفيلة قد ظهرت فأوجس خيفة ، وخشى أن تفعل بالمسلمين كما فعلت بهم يوم أرمات ، فراح يفكر فيما يفعل ليؤمن المسلمين خطر الفيلة القاتل ، وفيما هو يفكر ، أخذت زوجته سلمى تقترب منه ، وقد عزمت على

مصالحته ، فقد أساءت إليه ، وهى أعلم الناس أنه ليس بجبان ولا هياب ، وأنه لولا عذره ، لكان بطل الحلبة بلا جدال ، وجلست بجواره ، وظلت صامتة برهة ، ثم أخذت تحادثه عن الناس وما فعلوا فى أمسهم ، فالتفت سعد إليها وقال :

ــ رأيت بالأمس شيئاً عجباً ، رأيت فارساً على البلقاء كأنه مارد أو شيطان ، يضرب كأحسن ما يكون الضرب ، ولولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن .

فقالت سلمى :

ــ صعد إليك أبو محجن أمس حين أمسى ، وطلب منك العفو ، فرفضت فنزل ، فأتانى وقال لى : « يا سلمى بنت آل خصفة ، هل لك إلى خير ؟ » . قلت : « وما ذاك ؟ » . قال : « تخلين عنى وتعيريني البلقاء ، فلله على أن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى » . فقلت له : « وما أنا وذاك » فرجع يرسف فى قيوده ، وراح يقول :

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا ... وأتــــرك مشدوداً على وثاقيــــا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة ... فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرّجت إلا أزور الحوانيا

فأخذت أفكر فى إطلاقه ، ونزلت إليه وقلت له « إنى استخرت الله ورضيت بعهدك » وأطلقته ، فسألنى أن أعيره الفرس ، فقلت له : « أما الفرس فلا أعيرها » ولكنه أخذ الفرس وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ثم دب عليها . ولما انتهى من قتاله . أقبل ودخل من حيث خرج ، وأعاد رجليه فى قيديه ، وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم فى كل يوم فإن عميوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجيَ الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فنزلت إليه وسألته : « يا أبا محجن فى أى شيء حبسك ؟ » . قال : « والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى أحيانا ، فيساء لذلك ثنائى ، ولذلك حبسنى . قلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
وتروى بخمر الحص لحدى فإننى أسير لها من بعد ما قد أسوقها

واقتربت من سعد وقالت :

ــ وإنى أرى أنه ما قال هذا إلا ليرضى شيطان شعره ، فهلا عفوت عنه ؟ .

فأطرق سعد هنيهة ، ثم قال :

ــ على به .

وجاء أبو محجن ؛ فقال له سعد :

ــ اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله .

فقال أبو محجن :

ــ لا جرم والله لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبداً .

* * *

طلعت نواصى الخيل ؛ فحسب الناس أن مدد هاشم قد وافى ، ففرحوا ،

وكبر سعد ، وكبر القعقاع خلفه ، وكبر الناس ، وقالوا :

— جاء المدد .

وتقدم الفرسان ، وتكتبت الكتائب ، فاختلف الفريقان الضرب والطعن ؛ واستمر مدد المسلمين متواصلا ، وبلغت المعركة ذروتها ، ووصل هاشم الميدان ، فاتجه إلى القلب ؛ ولما رآه المسلمون ، كبروا فارتج المكان ، وأخذ المسلمون مصافهم ؛ وقال هاشم :

— أول القتال المطاردة ، ثم المراماة .

فأخذ قوسه ، فوضع سهما على كبدها ، ثم نزع فيها ؛ فرفعت فرسه رأسها ، فأصاب سهمه أذنها ، ولم ينطلق ، فضحك وضحك من حوله ، والتفت هاشم إليهم وقال :

— واسوأتاه من رمية رجل كل من رأى ينتظره . أين ترون سهمي كان بالغاً ؟.

— العتيق .

فمشى هاشم وسيفه فى يده ، وقد عزم على أن يبلغ ما لم يبلغه سهمه .

أقبلت الفيلة معها الرجالة يحمونها أن تقطع وضنها ، ومع الرجالة فرسان يحمونهم ، إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه لينفروا خيل المسلمين ، ولكن لم يحدث ما حدث يوم أرماث ، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد ، كان أوحش ، وإذا أحاطوا به كان آنس ، فلم تنفر خيل المسلمين ، واستمرت المعركة متعادلة فلم يظهر فريق على فريق ، ولما رأى رجل يزدجرد الذى فى الميدان وصول المدد إلى المسلمين ، راح يصيح بوصولهم :

— وصل مدد للمسلمين .

فصاح الثانى .

— وصل مدد للمسلمين .

فصاح الثالث والرابع وهكذا حتى بلغ الخبر يزدجرد فى إيوانه ، فبعث إلى جيشه أهل النجدات ممن بقى عنده .

راح هاشم يلعب برمحه وسلاحه ، ويخترق الصفوف ويتقدم لا يلوى على شيء حتى بلغ العتيق . ذلك المكان الذى لم يبلغه سهمه ، ثم عاد إلى موقفه الأول ، وهو يصول ويجول كأسد ضرغام ، كشر عن أنيابه ، لا يرضى لفريسته إلا المنون .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر أمامه فى قلق ، إنه لا يطيق رؤية هذه الفيلة ، فعلى الرغم من أنها لا تعمل ما عملته فى اليوم الأول إلا أنها لا زالت تفرق كتائب المسلمين ، فأرسل إلى بعض الفرس الذين أسلموا ، فلما دخلوا عليه سألهم :

— هذه الفيلة ، هل لها مقاتل ؟

— نعم ، المشافر والعيون ، لا ينتفع بها بعدها .

فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم :

— اكفيانى الفيل الأبيض .

وكانت الفيلة الأخرى تتبعه ، وكان فى القلب ، وكان بإزائهما ، وأرسل إلى اثنين آخرين :

— اكفيانى الفيل الأجرب .

وعلم المسلمون ما يفعلون بالفيلة ، فدعا عاصم والقعقاع بعض أعوانهما وقالا لهما :

— اكتنفوا الفيل لتحيروه .

وتناولا رمحين أصمين لينين .. وانطلق الجميع نحو الفيل الأبيض والتف

الرجال به فتشاغل بهم ، فحمل عاصم والقعقاع عليه ، ووضعا رمحيهما معا فى عينه ، فنفض رأسه ، فطرح سائسه ، ودلى مشفره ، فقطعه القعقاع ، فوقع الفيل على جنبه ، فهجم المسلمون على من كانوا عليه وجعلوا يقتلونهم قتلا .

وفى ذلك الوقت قال عمرو بن معد يكرب لمن حوله :

ـــ إنى حامل على الفيل ، فلا تدعونى أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عنى فقدتم أبا ثور ، فإن أدركتمونى وجدتمونى وفى يدى السيف .

فحمل على فيل كان بإزائهم ، وراح يضرب فى الرجال الذين حول الفيل ، فثار النقع ، فحجبه فالتفت الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـــ ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فقدتموه ، فقد المسلمون فارسهم .

فحملوا على الأعداء ، ولما اقتربوا منهم ، رأوا عمرا على الأرض والسيف فى يده يضاربهم به ، ويذب عن نفسه ، والمشركين حوله ، فشدد المسلمون النكير ، فأفرج المشركون عنه ، فإذا عمرو مطروح وفرسه مطعونة بجواره ، واقترب فرس من عمرو وعليه فارس ، فأخذ عمرو برجل الفرس ، فاضطرب الفارس ، وسقط ، وتلفت حوله فلمح عمرا فاستل سيفه ، واتجه نحوه ليطعنه ، ولكن المسلمون كانوا قد وصلوا إليه ، فطعنوا الرجل فسقط قتيلا ، والتفت عمرو إلى أصحابه ، وقال : أحضروا فرسا لى ، فلما أحضرت ، قال لهم :

ـــ فأمكنونى من لجامها .

فأمكنوه منه ، فركبها ،

قام الفيل الأبيض بعد أن طعنه عاصم والقعقاع فى عينيه ، وبعد قطع مشفرة ، وراح يضرب على غير هدى ، فكان إذا اتجه إلى صفوف المسلمين

نخسوه ، فيعود إلى صفوف الفرس فينخسونه ، فيتجه إلى الناحية الأخرى ، واستمر بين العسكرين ، وأخيرا يمم صوب النهر ، فنزل فيه ، فتبعته الفيلة كلها ، فنزلت فى النهر ، وحاول من فوقها أن يعيدوها سيرتها الأولى بلا جدوى ، فقد استمر الفيل الأبيض فى عبور النهر ، والفيلة كلها فى أثره ، فغرق من الفرس خلق كثير ، وانطلقت الفيلة فى طريقها حتى دخلت المدائن .

خلا الميدان من الفيلة ، فتنفس المسلمون الصعداء ، وراحوا يقاتلون قتال الأبطال الصناديد ، ومال الظل فتزاحف المسلمون وأخذ فرسانهم يحمونهم ، والتحم الجيشان ، فتدفقت الدماء أنهارا ، وسقط من المسلمين والفرس خلق كثير ، وأخذت السيوف تحصد الناس حصدا .

وأقبل الليل ، وما دب الفتور فى المقاتلين ، بل شاء كل من الفريقين أن يحسم الموقف ، وأن ينهى هذا القتال الدائر بلا هوادة أولين ، وكأنما أقسم المسلمون ألا يضعوا السلاح حتى يتم الله نصرهم ، ويعلى كلمتهم .

وراح سعد ينظر إلى القتال الرهيب ، فأيقن أن المسلمين قد عقدوا العزم على القتال طوال هذه الليلة التى سميت ليلة الهرير ، فأخذ يفحص ميدان القتال بنظره الثاقب ، فألفى مخاضة أسفل من المعسكر ، ورأى من الخير أن يحتلها المسلمون ، فأرسل فى طلب طليحة وعمرو بن معد يكرب ، فلما جاءا قال لهما :

— اذهبا إلى هذه المخاضة ، وقوما عليها خشية أن يأتينا القوم منها ، فإذ وجدتما القوم سبقوكما إليها ، فانزلا بحيالهم ، وإن لم تجداهم علموا بها ، فأقيما حتى يأتيكما أمرى .

فخرج عمرو وطليحة ومن معهما ، وانطلقا إلى المخاضة ، فلم يجدا أحدا ، فراح طليحة يجول ببصره فى المكان ، وبان عليه التفكير ، وانقضت مدة ساد

خلالها السكون ، ثم قال طليحة :

ـــ لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم ؟

فقال عمرو :

ـــ لا ، بل نعبر أسفل .

ـــ إن الذى أقوله أنفع للناس .

ـــ إنك تدعونى إلى ما لا أطيق .

ـــ لأنطلقن وحدى .

وانطلق طليحة ، وأغذ نحو العسكر من وراء العتيق وحده ، وسفل عمرو فأصحابهما جميعا . أخذ طليحة يغذ فى السير حتى إذا وقف على ردم النهر خلف معسكر الأعداء ، كبر ثلاث تكبيرات ، فارتاع أهل فارس ، وظنوا أن المسلمين يبيتون الغدر لهم ، وتعجب لها المسلمون ، وحسبوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين ، وأغار عمرو على رجال أسفل المخاضة ، فبات شك الأعاجم يقينا أن المسلمين قد أزمعوا الغدر بهم ولا ريب ، فعلام الانتظار ، فليزحفوا ، فقدموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القعقاع ما صنعوا ، فلم ينتظر إذن سعد بالزحف ؛ بل زاحفهم ورأى سعد ما صنع القعقاع فقال :

ـــ اللهم اغفرها له وانصره ؛ فقد أذنت له وإن لم يستأذنى !

واستمر المسلمون على مواقفهم وهم ثلاثة صفوف : صف فيه الرجالة أصحاب الرماح والسيوف ؛ وصف فبه المرامية ، وصف فيه الخيول وهم أمام الرجالة ؛ وكذلك الميسرة ، وأرسل سعد إلى رجاله :

ـــ إن الأمر الذى صنع القعقاع ، فإذا كبرت ثلاثا فازحفوا .

وأقام قيس بن هبيرة فيمن يليه ؛ ولم يكن شهد شيئا من ليالى المعركة إلا تلك الليلة ، وقال :

ـــ إن عدوكم قد أبى إلا المزاحمة ، والرأى رأى أميركم ، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة ، فإن القوم إذا زحفوا ، وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم ، عقروا بهم ، ولم يطيقوا أن يتقدموا ، فتيسروا للحملة .

وراحت نشاب الأعاجم تتطاير وتجوز صف المسلمين .

والتفت حامل لواء إحدى القبائل إلى أصحابه وقال :

ـــ إن المسلمين قد تهيئوا للمزاحفة ، فاستبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد أن كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوهم فى الشهادة ، وطيبوا بالموت نفسا ، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ما أردتم .

والتفت آخر إلى قومه وقال :

ـــ يا معشر العرب ، إنه لا ينبغى أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ، ولا أسخى نفسا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولا تجزعوا من القتل ، فإنه أمانى الكرام ، ومنايا الشهداء . وترجل وراح يستعد لسماع التكبيرة الثالثة ليزحف ليقاتل ويقتل فى سبيل الله .

ثارت حمية القوم ، وانتظروا تكبيرات سعد بصبر نافد ، ما باله قد تأخر ؟ وصكت التكبيرة الأولى آذانهم ، فازدادت حرارتهم ، ومرت مدة حسبوها دهرا ، وارتفعت تكبيرته الثانية ، فلم يطق الناس صبرا ، ولم ينتظروا تكبيرته الثالثة ، بل تزاحفوا وانطلقوا إلى القعقاع ليشدوا أزره فى زحفه ، ولم يبق إلا الرؤساء ينتظرون التكبيرة الثالثة ، ولما بلغت آذانهم ، انطلقوا لينضموا إلى أقوامهم .

راح كل قائد ينتمى إلى قبيلته ، فكانت أصواتهم تجلجل فى سماء المعركة ، فهذا يصيح : « واتميماه » وذاك يصيح : « واأسداه » وثالث يهتف : « وانخعاه » ورابع يهتف : « وابجيلتاه » ، وامتزجت الأصوات بصليل الحديد ، فكان دويها

عظيما هائلا ، وكانت الأصوات تبلغ أذنى سعد ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى شيئا ، فقد مد الليل رداءه الأسود ، فحجب عنه كل شيء ، ولم تغمض له عين طوال الليل ، وراح يدعو الله ، ويبتهل إليه أن ينصر دينه ، ويعز ناصره ، واستمر فى دعائه طويلا ، حتى بلغه تصايح شديد ، فراح يبحث عمن يستفسر منه عما يدور فى الميدان ، فلم يجد أحدا بالقرب منه فقد خرج الجميع ليضعوا حدا لهذه المعارك التى لم يظهر فيها فريق على فريق ، ووجد غلاما بالقرب منه فأنفذه إلى الصف ليرى ما يدور ويعلمه به ، فانطلق الغلام حتى بلغ الصف فرأى قتالا أذهله ، فجعل ينظر فاغرا فاه ، رأى رءوسا تطيح ، ودماء تتدفق ، كأنها نهر يفيض ، ورجالا تصول صولة الأسود ، وكاد ينسى نفسه وما أرسل له ، وراح يتتبع الفرسان وهم يلعبون بالسلاح ، ويضربون بالرماح . وكادت ضربة من الضربات الطائشة تصيبه ، فأفاق من دهشته ، وتذكر ما أرسل له ، فقفل عائدا إلى سعد ليذكر له ما رأى . وما أن رآه سعد حتى سأله بلهفة :

ـــ ما رأيت أى بنى ؟

فأخذ الغلام يقص ما وقع أمام عينيه .

وفى سكون الليل ، كانت الأم العجوز قلقة أرقة ، منزعجة مضطربة ، فما عاد أبناؤها وقد تصرم الليل ثلثاه ، ولم يبق على طلوع النهار إلا قليل ، أمن المعقول أن تكون المعركة قد استمرت آناء النهار ، وآناء الليل ؟ أم ترى قتلوا جميعا ولم يبق لها من أبنائها الأربعة أحد ؟ وأحست رهبة وأوجست خيفة ، ولعلهم استشهدوا جميعا ، واستمرت الهواجس تنتابها ، وراحت الأفكار تهاجمها ، فوقعت فريسة لها . وأخذت تدعو الله دعاء حارا أن ينصر المسلمين ، وأن يعيد إليها أبناءها سالمين .

الفصل العشرون

نصر مبين

لاحت تباشير الصباح ، ورحى الحرب دائرة ، والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، وصناديد المسلمين يلعبون بالسيف ، لم يهنوا ولم يدب الفتور إليهم ، وراح عمرو بن معد يكرب يمر بين الصفوف ويقول :

ــ لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء لأهل فارس أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفسا عن الدنيا .

واستمر القتال رهيباً ، وسار القعقاع فى الناس فقال :

ــ إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر .

واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وشدوا على الأعداء ، وابتدأ الوهن يدب فى جيش رستم ، وكان هدف القعقاع طيارة رستم ، إنه يعمل جاداً على قتله ، فلو ناله بسيفه لدبت الهزيمة فى أوصال الجيش جميعه ، واستمر الضغط على جيش الفرس ، وأخذ يتزايد ، وكان ضغط المسلمين على جناحى الأعداء شديداً ، فتقهقر الهرمزان والبيرزان ، وهبت الرياح ، واشتد هبوبها ، فقلعت طيارة رستم عن سريره ، واستمرت الرياح تدفعها حتى بلغت العقيق فهوت فيه ، وبان سرير رستم ، فأخذ الجميع يشدون نحوه ، ولما رأى رستم انكشاف سريره ، قام عنه إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ ، واستظل فى ظل بغل وحمله .

واستمر القعقاع ومن معه يشددون النكير على الأعداء ، وينطلقون قدماً حتى بلغوا سرير رستم ولكنهم لم يعثروا له على أثر ، فراحوا يستأنفون القتال ، ورأى هلال بن علفة بغلا محملا ، فضرب الحمل بسيفه ، وكان الحمل الذى استظل رستم فى ظله ، فسقط عليه فانتفض مذعوراً ، ورأى نفسه أمام هلال وجهاً لوجه والموت يطل من سيفه ، ففر ، وانطلق هلال فى أثره ، واستمر رستم يجد فى الفرار وهلال خلفه حتى بلغ رستم العقيق فألقى بنفسه فيه وابتدأ يسبح ، فاقتحم هلال النهر ، وأمسك برستم الذى قاوم ودافع عن حياته دفاع اليائس المستميت ، ولكن أين المفر ؟ فقد أطبق هلال عليه ذراعين فولاذيتين ، وخرج به إلى الشاطىء ، ثم تناول سيفاً وضرب جبينه به ، حتى قتله ثم حمله بين يديه حتى بلغ سريره فوضعه فوقه ، ثم صاح :

— إلى .. إلى ! قتلت رستم ورب الكعبة .. قتلت رستم ..

فتدافع الناس نحوه ، وارتفع تكبيرهم حتى شق الجوزاء ، وبلغ عنان السماء ، ودبت الحماسة فى قلوبهم ، وانخلعت قلوب الأعاجم ، وراحوا يتقهقرون وما يدرون ما يفعلون ، ولمح ضرار بن الخطاب الدرفس كابيان فى يد حامل لوائهم فانقض عليه وعاجله بضربة قاتلة ، فسقط مجدلا ، وأخذ ضرار راية كسرى العظيمة .

رأى الفرس ما حل برستم ، وما حل برايته ، فدب الذعر بينهم وانهزموا ، وقام الجالينوس على الردم ونادى أهل فارس إلى العبور ، فراحوا يعبرون وسيوف المسلمين تعمل فى رقابهم ، ورأى سعد انسحاب الأعداء ، فنادى زهرة وأمره أن يتبعهم ، فسار فى أثرهم ، وانطلق حتى رأى الجالينوس بجمع شتات الفارين فهجم عليه وغافله وضربه ضربة كانت القاضية ، فتفرق شملهم وأمعنوا فى الفرار ، فلم يجد زهرة فائدة من تعقبهم فقفل عائداً إلى سعد .



وخرج به إلى الشاطئ ، ثم تناول سيفاً وضرب جبينه به حتى قتله

بلغ النساء أن قد فرغ من الناس ، فشددن عليهن ثيابهن وأخذن الهراوى ، ثم انطلقن ، وخرجت الأم العجوز تبحث عن أبنائها ، وراحت النساء يسقين الجرحى ويضمدن جروحهم . وعثرت الأم العجوز على أحد أبنائها جريحاً ، فناولته جرعة ماء وضمدت له جرحه ؛ وقام يستند على ذراعها وراحا يدبان ويبحثان وينقبان حتى عثرت الأم على أبنائها جميعاً سالمين ، فغامت عيناها بدموع الفرح ، وراحت تغمغم شاكرة الله بصوت خفيض ، كله حرارة وامتنان وعرفان للجميل .

وأقبل زهرة ومن معه ، وكان زهرة يومئذ على فرس له ، ما عنانها إلا حبل مضفور كالمقود ، وحزامها شعر منسوج ، ولكنه تدرع ما كان على الجالينوس ، ولبس لبسه ، واتجه إلى سعد وكان عنده أسارى فى الفرس ، فلما رأوا ما يلبس زهرة قالوا :

— هذا سلب الجالينوس .

وأقبل زهرة على سعد يقص عليه نبأ مقتل الجالينوس ، ولما فرغ من قصته سأله سعد :

— هل أعانك عليه أحد ؟

— نعم .

— من ؟

— الله .

— قد نفلتك سلبه .

وكان سعد قد أرسل رجلا لينظر له فى القتلى ، وليسمى له رءوسهم ، فأتاه وأعلمه أنه لم ير رستم فى مكانه ، فدعا هلالا وسأله :

— ألم تبلغنى أنك قتلت رستم ؟

ـــ بلى .

فما صنعت به ؟

ـــ ألقيته تحت قوائم الأبغل .

ـــ اذهبوا وأتونى به .

فانطلق هلال وبعض نفر إلى الميدان ، وعادوا برستم ، فأعطى سعد هلالا سلبه ، وألقى جسد رستم بالقرب من باب القصر ؛ وجاء نفر من المسلمين فرأوا الجسد فعرفوه ، فأخذوا يتفرسون فيه ، فوجدوا الضرب قد شوه وجهه ؛ فلما دخلوا على سعد قالوا له :

ـــ رأينا جسد رستم على باب قصرك وعليه رأس غيره ؛ فضحك سعد ، وكان البشر يشيع فى وجهه .

وراح المسلمون يجمعون الغنائم ، فجمعوا شيئا كثيرا ، ما كانوا يحلمون بمثله ، وما كان يدور بخلدهم أن فى الدنيا مثله ، وارتفعت الشمس فى سمت السماء ، ووافى ميقات صلاة الظهر ، ولكن المؤذن قد أصيب فشاء خلق كثير أن يؤذن كل منهم ، فما أحلى الأذان غب الانتصار ، فتشاح الناس ، وارتفع بينهم الجدال ، حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف . وبلغ خبرهم مسامع سعد ، فاستدعاهم ، فأقرع بينهم ، وقام من خرج سهمه فأذن ، فاجتمع الناس للصلاة لله رب العالمين ، الذى نصرهم ذلك النصر المبين .

قتل من المسلمين خلق كثير فأصبح فى النخع سبعمائة امرأة فارغة وفى بجيلة ألف ، فلم يشأ الناس أن يتركوهن بلا عائل ، فأخذ كل قادر يتزوج منهن ، حتى تزوجن جميعا ، وخطب بكير بن عبد الله الليثى ، وعتبة بن فرقد السلمى ، وسماك بن خرشة الأنصارى أخت زوج القعقاع ، فجاءت إلى أختها وقالت لها :

ـــ استشيرى زوجك أيهم يراه لنا .

فجاءت زوج القعقاع إليه وسألته ، فقال لها :

ـــ سأصفهم فى الشعر فانظرى لأختك ، وقال :

إن كنت حاولت الدراهم فانكحى ... سماكا أخا الأنصارى أو بنى فرقد

وإن كنت حاولت الطعان فيممى ... بكيرا إذا ما الخيل جالت عن الردى

وكلهـــم فى ذروة المجد نازل ... فشأنكم إن البيـان عن الغـد

وتكدست الغنائم ، فأخذ سعد فى تقسيمها ، فاحتجز الخمس لعمر ، وقسم الباقى على الناس ، فنالهم خير كثير ، وأخذ الإخوة الأربعة أنصبتهم ، فحملوها ؛ وانطلقوا حتى أتوا أمهم العجوز فأعطوها كل ما أخذوا ، فراحت الأم تقسم الأنصبة بينهم وقد بان البشر فى وجهها ، وكان السرور يهزها ، رزق كثير ، وأبناء بررة صناديد ، بارك لها الله فيهم ؛ إن فى هذا السعادة كبرى ، وغبطة ما بعدها غبطة .

الفصل الحادى والعشرون

بعد القادسية

خرجت الشمس من خدرها ، وفى نفس الوقت خرج رجل من داره فى يثرب ، وراح يضرب فى طرقاتها حتى بلغ خارج المدينة ، فأخذ يمد بصره إلى الأفق البعيد يستكشف الطريق لعله يلمح أحدا قادما . وكان كلما لمح أحدا أسرع إليه ، وأخذ يسأله من أين أتى ؟ وكان غالبا ما يترك القادم عقب سماع رده ، فما كانت الجهة القادم منها لتعنيه ، إنه يسأل عن أخبار جهة بعينها تهمه أخبارها ، حتى كان يخرج يوميا من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، يسأل الركبان عن أهل تلك الجهة . واستمر الرجل يتطلع إلى الأفق البعيد ، ولمح شبحا على مدى البصر يتحرك ، فراح يرقبه ، وأخذ الشبح يقترب رويداً رويداً ، إنه رجل على ناقته يغذ فى السير صوب يثرب ، فأسرع صاحبنا إليه ، فلما بلغه سأله :

ــ من أين ؟

ــ من القادسية .

فقال صاحبنا بلهفة :

ــ يا عبد الله حدثنى .

ــ هزم الله العدو ، وانتصر المسلمون ، وقتل رستم والجالينوس وقواد كثيرون ، وكانت معركة ما شهد العرب مثلها ، وغنمنا غنائم لا حصر لها .

واستمر القادم يصف ما دار فى القادسية وهو على ناقته ، والرجل يخب معه ويستخبره ، وبرقت أسارير الرجل لما يسمع ، وانطلقا يتحادثان حتى دخلا المدينة ، فراح الرجل السائر على قدميه يسلم على الناس ، فيرد الناس عليه السلام « وعليك السلام يا أمير المؤمنين » ، فلما رنت « يا أمير المؤمنين » فى أذن الراكب ، نزل عن ناقته ، وتقدم من عمر وقال :

— فهلا أخبرتنى ، رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟

— لا عليك يا أخى .

ومد الرجل يده ، وأخرج كتاب سعد ، ودفع به إلى عمر وهو يقول :

— أنا سعد بن عميلة الفزارى ، قد بعثنى سعد إليك بكتاب .

فتناول عمر الكتاب ، وراح يقرأ : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة . إذ لم يكتب لهم » .

وانطلق عمر إلى المسجد ، وقام فى الناس فقرأ عليهم الفتح ، فسرت فى المدينة موجة غبطة وسرور .

* * *

قسم سعد الفىء فى الناس ، فكان نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ، وجاءه من عمر أن يفضل أهل البلاء ، فأعطى كلا منهم خمسمائة ،

ثم جاءه من عمر : أن « رد على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد القادسية » ، فراح سعد يوزع على الناس ، وبقي عنده شيء كثير لم يدر ما يصنع به ، فأرسل إلى عمر يستفسر ، فقال له عمر أن يوزع على حملة القرآن ؛ وفيما كان سعد ينفذ أمر أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن معد يكرب ، وبشر بن ربيعة ، فالتفت سعد إلى عمرو وقال له :

— ما معك من كتاب الله تعالى ؟

— إني أسلمت باليمن ، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن .

فأبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيبا ، والتفت إلى بشر وسأله عما معه من كتاب الله ، فاعتدل بشر وقال :

— بسم الله الرحمن الرحيم ..

وصمت ، فقد كان هذا كل ما يحفظ من القرآن ، فضحك القوم ، ورفض سعد أن يجعل له من هذا المال نصيبا ، فلم يرض عمرو عن هذا القرار ، فكيف يحرم ، وقد أبلى في المعركة بلاء شديداً ؟ فالتفت إلى سعد وقال :

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد ... قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن على نفد ... ولا سوية إذ نعطى الدنانير

وقال بشر :

أنخت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص على أمير

وسعد أمير خيره دون شره ... وخير أمير بالعراق جرير

تذكر هداك الله وقع سيوفنا ... بباب قديس والمكر عسير

عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير

فأطرق سعد لما سمع هذا ، إن ما يقولان حق ، فرأى أن يكتب إلى عمر كتابا بأمرهما ، وما دار بينه وبينهما ، فكتب الكتاب وأرسله إلى عمر ، فكتب عمر إليه : أن أعطهما على بلائهما ، فاستدعاهما سعد ، وأعطى كل واحد منهم ألفى درهم ، فشاع الرضا فى نفسيهما .

الفصل الثانى والعشرون

بابـــل

﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾
(قرآن كريم)

تصرم شهران بعد القادسية ، وأبل سعد من مرضه ، وانتظر إذن أمير المؤمنين بالسير ، إنه ليتوق إلى فتح المدائن عاصمة كسرى ، وإنه ليشتاق إلى دخول إيوانه ، ليت إذن أمير المؤمنين عمر يبلغه قريباً ، إذن لانطلق بالناس وهم فى غمرة حماستهم ، وأوج مجدهم وعز نصرهم ، ولاكتسح أمامه كل شيء ، ولطوى ملك كسرى طياً ، ولارتفعت أصوات المؤذنين فى تلك المملكة المترامية معلنة زوال الوثنية ، مؤكدة عبادة الله وحده لا شريك له .

وجاء كتاب عمر أن انطلقوا إلى المدائن ، وأمره أن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، ويجعل لهم كثفاً من الجند ، وأن يشركهم فى كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين فى عيالهم . فترك سعد النساء وعين لهن الحرس وأمر زهرة بن الحوية بالانطلاق إلى الحيرة ، فخرج زهرة ومن معه ، وانطلقوا صوب المدائن ، فلما انتهوا إلى برس ، وجدوا جيشاً من جيوش الفرس ، فدارت معركة بين الجيشين لم تدم طويلا ، فقد كان المسلمون مسلحين بكل أنواع السلاح والكراع التى غنموها فى القادسية ، فلم يلبث جيش فارس أن فر ليلحق بمن بقى ببابل من جيوشهم .

نزل زهرة فى برس ، وجاءه دهقانها ، وأخبره أن الفرس يتجمعون فى بابل ، فقد اجتمعت فلال القادسية وبعض جنود يزدجرد ، وعقدوا العزم على مطاولة المسلمين . وخشى زهرة من أن يتمكنوا من لم شعثهم ، فكتب إلى سعد بالخبر ، وأنبأه أنهم تجمعوا حول الفيرزان . فلما بلغ سعدا الكتاب ، ولى هاشم بن عتبة بن أبى وقاص عمل خالد بن عرفطة ، وجعل خالداً على الساقة ، وأمرهم بالانطلاق إلى برس للانضمام إلى زهرة . فخرج الجيش مجهزاً بالعتاد والسلاح ، وذلك السلاح الذى غنموه من الفرس فى القادسية ، وانطلقوا ليقاتلوهم بسلاحهم . وعقب خروج هاشم ، خرج سعد ومن معه ، واجتمعوا جميعا فى برس ، وقدم زهرة وأتبعه هاشما . وما أن التقى الجمعان فى معركة ، حتى انهزم الفرس ولاذوا بالفرار ، وانطلقوا على وجوههم ، وفر الهرمزان إلى الأهواز ، وسلب كل ما كان يقع فى يده ، وخرج معه الفيرزان وانطلقا إلى نهاوند ، وكان بها كنوز كسرى فسلباها وعبرا بهرسير إلى جانب دجلة الآخر ، وقطعا الجسر .

بلغت أنباء انتصارات المسلمين كل مكان ، فحز ذلك فى نفوس الفرس ، فاجتمعت كتيبة من كتائبهم تدعى بوران ، وراحوا يقسمون : « والله لا يزول ملك فارس ما عشنا » وراحوا يرددون قسمهم كل يوم ، وثبتوا فى مظلم ساباط ، وكان معهم أسد من الأسود التى ألفها كسرى ، فعقدوا العزم على أن يدعوا ذلك الأسد يقابل الأعداء ، وحسبوا أنه سيرعبهم ، وينهاهم عن عزمهم ، وما دروا أن بين المسلمين أسودا لا تهاب الردى ، بل رجالا أشجع من الأسود الكواسر .

وترامت أنباء تلك الكتيبة إلى سعد ، فقدم زهرة ، ثم أتبعه هاشما ، فانطلق هاشم حتى بلغ مظلم ساباط فانتظر هناك حتى لحق سعد به ، فانطلق الجميع إلى المعركة التى كانت دائرة بين جيش زهرة وكتيبة بوران . بلغ جيش هاشم وجيش سعد الميدان والمعركة ذائرة على أشدها ، ولمح هاشم أسدا يشيع الفوضى فى صفوف المسلمين ، ويبادر الناس فينفروا مذعورين فاندفع صوبه ، ولكن حصانه جفل ، فنزل عنه ، واستل سيفه وتقدم نحو الأسد ، ثم ضربه ضربة هائلة فقتله ، فكبر الناس ، فارتج المكان . ودب الذعر فى نفوس الفرس ، وخلعت قلوبهم ، فولوا الأدبار مدحورين ، فاتجه سعد إلى هاشم ابن أخيه وقبل رأسه ، لقد وقى المسلمين شر أسد فارس ، ونجاهم من هلاك شديد . ونزل سعد إلى مظلم ساباط ، وراح يتبع بنظره هؤلاء القوم الفارين الذين أقسموا بالله ألا يزول ملك فارس ما عاشوا ، فغمغم : ﴿ أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ ﴾ .

ذهب من الليل هدأة ، ونادى منادى سعد : « إلى بهرسير » فامتطى الناس خيولهم ، وخرجو إلى بهرسير ضاحية المدائن عاصمة الفرس ، وكان كلما قدمت خيل عليها ؟ كبر الناس ، واستمر تكبير المسلمين حتى نجز آخر من كان مع سعد .

نزل المسلمون على بهرسير ، وكان عليها خنادقها وحرسها ، وعدة الحرب . وراح أهل فارس يرمون المسلمين بالمجانيق ، فاستصنع سعد أحد الفرس المجانيق ، ونصب على أهل الناحية عشرين منجنيقا ، وراح المسلمون يضربون الناحية ، وكان بعض الفرس يخرجون للقتال بين الحين والحين ، وأخيرا خرجوا فى رجالة وناشبة وتجردوا للحرب ، وتبايعوا على الصبر . فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم وولوا مدبرين ، ودخلوا حصون المدينة ،

وضرب المسلمون عليهم الحصار ، وطال الحصار ، ونال الجهد من المحاصرين . وفى يوم أشرف رسول ، فتقدم سلمان الفارسى ليكلمه ، فقال الرسول :

ـــ إن الملك يقول لكم : هل لكم فى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ، أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ؟

فقال سلمان :

ـــ إنى منكم فى الأصل ، وأنا أرق لكم ، ولكم فى ثلاث أدعوكم إليها : ما يصلحكم أن تسلموا ، فإخواننا لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

وانتظر المسلمون ثلاثة أيام ، وأبى الفرس أن يجيبوا إلى شىء ، فاستأنف سعد قتالهم ، فلم يجدوا أمامهم إلا الفرار إلى المدائن وترك المدينة .

وأقبل الليل ، وتسور رجل أسوار المدينة ، ثم هبط فيها ، وراح يجوس خلالها ، فلم يجد أحدا ، فناداهم :

ـــ والله ما فيها أحد .

فتدافع المسلمون ودخلوا المدينة ، فإذا هى ساكنة سكون الرموس ، دخلوا بهرسير ضاحية المدائن فى جوف الليل البهيم ، وشاء سعد أن يعبر النهر إلى المدائن فورا ، فأسرع إلى الشاطئ ، ولكنه وجد الأعاجم قد ضموا السفن فيما بين البطائح وتكريت ، فوقف ومن معه على الشاطئ ينظرون ، فلاح لهم إيوان كسرى الأبيض فى الظلام ، فرأوا شيئا عجبا ، رأوا بنيانا ضخما ما رأوا مثله ، فتطلعوا إليه مدهوشين ، وعقدت الدهشة ألسنتهم مدة ، ولما وجد ضرار بن الخطاب لسانه هتف :

— الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله .

فكبر المسلمون . واستمروا فى التكبير ، منشرحى الصدور ، فها هو أبيض كسرى أمامهم ، وما بينهم وبينه سوى ذلك النهر ، وسيعبرونه ، وسينزلون بإيوان كسرى محققين نبوءة نبيهم العظيم .

الفصل الثالث والعشرون

كتيبة الأهوال

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾
(قرآن كريم)

بقي سعد فى بهرسير ، وكان كلما تطلع إلى الضفة الثانية ، ورأى إيوان كسرى الأبيض ، ثارت حماسته ، وراح يفكر فى اقتحام النهر ليضع يده على المدائن حاضرة فارس ، ولكن كان يمنعه الإبقاء على المسلمين . وفى يوم أقبل رئيس من رؤساء فارس ، واستأذن فى مقابلة سعد فأذن له ، ولما تقابلا دار الحديث بينهما ، فراح الرجل يقول له : « ما يقيمك ؟ لا تأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء فى المدائن » . وراح يدله على مخاضة فى النهر يسهل اقتحامها ، ولكن سعدا أبى ، فقد خشى أن يكون ذلك مكيدة دبرت للقضاء على المسلمين ، وأقبل الليل ونام الناس ، وهجع سعد ، فرأى فيما يرى النائم أن جيوش المسلمين اقتحمت النهر ، وأن الخيول قد سبحت بمن عليها حتى عبرت إلى الضفة الثانية سالمة ، فهب من نومه منشرح الصدر ، وقد عقد العزم على أن يخوض النهر بجيشه ، وعلى أن ينطلق باسم الله ، وعلى بركة الله .

وتنفس الصبح ، فخرج سعد إلى الناس وجمعهم ، وقام وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

ـــ إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم

يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا ، وشونكم فى سفنهم ، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا زادتهم ، وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بذياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعا :

ـــ عزم الله لنا ولك ، على الرشد فافعل .

وأخذ سعد ينتدب الناس إلى العبور فقال :

ـــ من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟

فقال عاصم بن عمرو :

ـــ أنا .

وتقدم من سعد وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل سعد عليهم عاصما ، وبذلك تكونت كتيبة الأهوال ، وسار عاصم وكتيبته حتى بلغوا شاطئ دجلة ، وكان النهر قد أرغى وأزبد وفاض ، فنظر عاصم إلى من معه وقال :

ـــ من ينتدب معى لنمنع الفراض من عدوكم ، ولنحميكم حتى تعبروا ؟

فتقدم ستون ، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكورة ، ليكون أسلس لعوم الخيل ، واقتحم عاصم ومن معه النهر ، فلما رأى الأعاجم الذين كانوا على الضفة الثانية ما فعل المسلمون ، أرسلوا خيلهم لملاقاة هؤلاء المردة الذين لم يقف النهر فى وجوههم ، ولم يثنهم عن عزمهم ، واقتحمت خيول الفرس النهر ، فلما رأى عاصم ذلك ، صاح فيمن معه :

ـــ الرماح ! الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .

واندفع عاصم والستون الذين معه صوب خيول الفرس التى نزلت لملاقاتهم ، ولما رأى بقية كتيبة الأهوال ما يصنع إخوانهم ، اقتحموا النهر واندفعوا ليشتركوا جميعاً فى قتال الفرس ؛ وعامت خيول المسلمين واقتربت من الضفة الثانية ، وهناك التقى المسلمون بالأعاجم ، ودارت معركة فى البحر أشد هولا مما دارت على الأرض ، وأخذ المسلمون يصوبون الرماح إلى عيون الأعداء وإلى عيون الخيل ، فأخذت الخيل تنفر ، وتزلزلت بهم ، وراحت كتيبة الأهوال تنزل بالأعداء ضربات قاصمات ، فأحس الفرس ألا قبل لهم بهذا فقال بعضهم لبعض :

ـــ ما تقاتلون الإنس ، وما تقاتلون إلا الجن .

ودبت روح الهزيمة فيهم فراحوا ينسحبون ، وخرجوا من الماء إلى البر وكتيبة الأهوال فى أثرهم ، لا تترك لهم فرصة للراحة أو التجمع ، فاستمر القتال فى البر إلى أن صاح صائح فى أهل فارس :

ـــ علام تقتلون أنفسكم ، فوالله ما فى المدائن أحد .

فزاد ذلك فى وهنهم ، وفت فى عضدهم ، فانهزموا وتقهقروا صوب المدائن .

أصبحت كتيبة الأهوال على الضفة الثانية ، لا ينازعها منازع ، ورأى سعد أن عاصما قد زحزح الأعداء ، فقال للناس :

ـــ اقتحموا وقولوا : نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاقتحم الناس دجلة ، وركبوا اللجة ، واقترنوا ، وساروا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض ، وراح سلمان الفارسى يساير سعداً فى الماء ، وامتلأ النهر بخيل المسلمين ، حتى لم يعد من اليسير أن يرى الماء من الشاطئ ، والتفت

سعد إلى سلمان وقال :

ــ والله لينصر الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ، ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا .

واستمر جيش سعد فى العبور ، والناس يتحادثون ، وزل رجل عن ظهر فرسه ، فكاد يغرق ؟ ولكن القعقاع لمحه ، فثنى عنان فرسه إليه ، وأخذ بيد الرجل ، وراح يجره والتيار يجرفه ، واستمر القعقاع فى جره حتى بلغ الشاطئ .

فالتفت الرجل إليه وقال :

ــ عجزت النساء أن يلدن مثلك يا قعقاع .

وخرج المسلمون من النهر أفواجا كما دخلوه أفواجاً ، فراحت الأفراس تنفض أعرافها وارتفع صهالها ، وكبر المسلمون فزلزل المكان زلزالا ، وحمدوا الله على أن أخرجهم جميعاً من الماء سالمين ، والتفت سعد إلى عاصم وأمره أن ينطلق إلى المدائن ، فانطلق وكتيبة الأهوال خلفه إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ليطعنوه ، فتخر الإمبراطورية كلها تحت أقدامهم .

الفصل الرابع والعشرون

سعد فى إيوان كسرى

﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾

(قرآن كريم)

انطلقت كتيبة الأهوال فى سكك المدائن فلم تعثر على أحد ، ولمح رجل جماعة من الفرس يتلاومون ويقولون : من أى شىء فررنا ، وجعلوا يحمس بعضهم بعضا ، ودبت الحماسة فيهم ، وهاجوا وماجوا ، فمال الرجل عليه وضربه بسيفه ففلق هامته ، فلما رأى القوم ما حل بإمامهم تفاروا عنه ، وعاد الرجل يجد فى أثر أصحابه ليلحق بهم .

راحت كتيبة الأهوال تطوى السكك والقفار ، حتى بلغت القصر الأبيض ، فوجدت أناساً يدافعون عنه ، فضربت عليه الحصار ، وجاء سعد ومن معه ، فحاصر المسلمون القصر من كل جانب ، وتطايرت السهام ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى وسعد فى مكانه يدبر أمره ، وفيما هو يفكر ، أشرف رجل من القصر يطلب من يكلمه ، فأرسل سعد سلمان ، فمشى سلمان حتى صار قبالة الرجل الذى سأل عن شروط المسلمين ، فقال سلمان :

ـــ ثلاث تختارون منهن أيتهن شئتم .

ـــ وما هي ؟

ـــ الإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فمناجزتكم حتى يقضي الله بيننا وبينكم .

ودخل الرجل ليشاور أصحابه ، واستمر الحصار ، وفى اليوم الثالث أيقن من فى القصر ألا قبل لهم على مواجهة هؤلاء المردة الذين قتلوا أبطالهم ، وشتتوا جيوشهم ، وجعلوا ملكهم يحمل ما خف حمله من جواهر ، ويترك عرشه ، وترك فى الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا تقدر قيمته ، ويفر إلى حلوان مشرداً طريداً ، لا يدرى مآله ، ولا يطمئن إلى غده ، فرأوا من الحكمة مصالحة المسلمين فأشرف سفيرهم من القصر ، وتقدم إليه سلمان ليسمع ردهم فقال السفير :

ـــ لا حاجة لنا فى الأول ولا فى الآخرة ولكن الوسطى

قبل من فى القصر دفع الجزية للمسلمين ، وفتحت أبوابه فتقدم سعد والناس حوله ، ودخلوا قصر كسرى العظيم ، وجعلوا يدورون بعيونهم فى جنباته ، فامتلئوا دهشة ، رأوا عظمة ما رأوا مثلها قط ، رأوا أعمدة ملساء ضخمة قائمة ، وتماثيل جص دقيقة الصنع ، ونمارق منمقة مزوقة ، وأبسطة فاخرة ، وترفا يأخذ باللب ، جعلهم يمشون مأخوذين فاغرى الأفواه دهشة وعجبا ، واستمروا فى طرقات القصر حتى بلغوا إيوان كسرى فزاد عجبهم ، ورأى سعد ما بهر عينه وخلب لبه . فخشع قلبه وجعل يقرأ : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ .

وآن أوان الصلاة وهم فى إيوان كسرى ، فأمر سعد المؤذن بالأذان ،

فارتفع صوت المؤذن لأول مرة مجلجلا فى إيوان الوثنية :

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

فأطرق الجميع وأحسوا طمأنينة تمتزج برهبة ، وكان صوت المؤذن يداعب أوتار قلوبهم ويسيطر على حواسهم ، فيرفعهم إلى عالم سماوى وجعلهم يحلقون فى أجواء من النشوة الروحية ، حتى ليحسوا أنهم على اتصال وثيق بالله رب العالمين .

وأم سعد القوم ، ووقف خلفه المسلمون الصناديد ، الذين ما هابوا أحدا ولا خشوا موتا ، خاشعين يرتجفون خوفا من خشية الله ، وراح سعد يقرأ القرآن فتهتز أفئدتهم فكأنما يسمعونه لأول مرة ، وكانوا فى صلاتهم ملائكة بررة ، كما كانوا فى قتالهم شياطين مردة .

وقضيت الصلاة ، فأمر سعد الناس بجمع ما فى القصر والإيوان والدور ، ووكل بالأقباض عمرو بن مقرن ، وراح الناس يجوسون خلال القصر ، وبلغ بعضهم قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص ، فحسبوها طعاما ، ففتحوا السلال فإذا هى آنية الذهب والفضة . فحملوها إلى عمرو بن مقرن ، ووجد بعضهم كافورا فحسبوه ملحاً ، فراحوا يعجنون به ، ولكنهم وجدوا مرارته فى الخبز ، واستمرت الغنائم ترد على عمرو بن مقرن وهو يحصيها وتكدس أكواما .

وأمر سعد زهرة أن يجد فى أثر القوم الفارين ، فخرج زهرة ومن معه وانطلقوا كالشهاب حتى واتوا جسر النهروان فوجدوا الفارين عليه ، فخالطوهم وضاربوهم وزلزلوهم زلزالا شديدا ، وسقط بغل فى النهر فأسرع الأعداء إليه وراحوا جميعاً يحاولون إخراجه ، ورأى زهرة اهتمام القوم بالبغل فاتجه إليهم وراح يضربهم بالسيوف ، ولكنهم ظلوا ثابتين لم يفروا وتحملوا

الضغط الشديد فقال زهرة :

ــ إنى أقسم بالله أن لهذا البغل لشأناً ، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشىء بعد ما أرادوا تركه .

وحمل عليهم حملة صادقة ، وراح يحصيهم عددا ، ويقتلهم بددا ، فلم يبق منهم أحداً ؛ واتجه أصحاب زهرة إلى البغل فأخرجوه ، ثم أمر برده إلى سعد .

ولمح القعقاع رجلا يحاول الفرار ، والناس تحميه ، فانطلق إليه وسيفه فى يده فلما اقترب منه ، تبادل الرجلان الضربات وضرب الفارسى القعقاع ضربة شديدة اتقاها بسيفه ، ثم ضربه القعقاع ضربة فحاول الفارسى أن يتلقاها بسيفه ولكنها أطاحت بذراعه وما يحمل ، ثم ضربه الثانية فكانت القاضية ، ووجدت مع المقتول جنيبة عليها عيبتان ، وغلافان فى أحدهما خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف ، وإذا فى العيبتين أدراع ، فأخذ الغلافين والعيبتين وعاد إلى سعد .

ووقف صاحب الأقباض يستقبل الرجال ويأخذ منهم ما غنموا ، ووقف أناس ينظرون ويظهرون إعجابهم بما يشاهدون ، وأقبلت الدواب فى قطار طويل ، وراح كل يقدم دابته وهو لا يدرى ما تحمل ، وتقدم رجل بالبغل الذى بعث به زهرة ، وترك الرجل البغل وهم بالانصراف ، فالتفت صاحب الأقباض إليه وقال :

ــ على رسلك حتى ننظر ما معك .

وراح الرجل يحط عن البغل ما يحمل ، فإذا الذى عليه حلية كسرى ؛ ثيابه وخرزاته ، ووشاحه ، ودرعه التى كان فيها الجوهر ، والتى كان يلبسها ويجلس فيها للمباهاة والتيه ، ففغر الناس أفواههم دهشة ، وأقبل رجل يسوق حمارين ، وحط عنهما حملهما ، فإذا تاج كسرى يتلألأ لألاء ، فكبر الناس وهللوا ،

وبلغ تكبيرهم مسامع سعد ، فأقبل ليرى ما هناك ، وجاء سعد إلى صاحب الأقباض ، فرأى الناس مجتمعين ينظرون مبهوتين ، فنظر إلى ما ينظرون فرأى عجبا ؛ رأى تاجاً يشع ضياء يكاد سناؤه يذهب بالأبصار ، ثم أخرجت ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب ، المنظوم بالجواهر ، وأقبل القعقاع بن عمر بالعيبتين والغلافين ، وأخرج من العيبتين أدراعا ، فإذا الأدراع درع كسرى ، ودرع هرقل ، ودرع النعمان ، ودروع أخرى للملوك الفرس ، وإذا فى أحد الغلافين خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف ؛ وكان بين الأسياف سيف كسرى وسيف هرمز وسيف هرقل وسيف النعمان ، فالتفت سعد إلى القعقاع وقال له :

ــ اختر أحد هذه الأسياف .

فاختار سيف هرقل ، وأعطاه سعد درعا من الدروع ثم قال :

ــ احبسوا سيف كسرى وتاجه وثيابه وسيف النعمان فى الأخماس لنبعث بها إلى عمر لتسمع بذلك العرب .

وجاء رجل يقود حمارين ، فتقدم صاحب الأقباض منهما ونظر فيما على أحدهما فإذا سفطان : فى أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثغره الياقوت ، والزمرد منظوم على الفضة ، وعليه فارس من فضة مكلل بالجواهر ، وإذا فى الآخر ناقة من فضة عليها سليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليها رحل من ذهب مكلل بالجوهر ، وأقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ففتحه ، فرأى شيئاً يأخذ باللب ، لم ير مثله قط ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـــ ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه .

والتفت صاحب الأقباض إلى الرجل وقال :

ـــ هل أخذت منه شيئاً ؟

فقال الرجل فى هدوء :

ـــ أما والله لولا الله ما أتيتكم به .

ـــ من أنت ؟

ـــ ولا والله ، لا أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه .

وانصرف الرجل وقد اشرأبت إليه الأعناق ، وراح سعد يجيل عينيه فى الغنائم المكدسة التى جاء الناس بها وقال :

ـــ والله إن الجيش لذوى أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت وأيم الله على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم .

ثم جمع الغنائم ، فراح سعد يقسم الفىء ، فاحتجز الخمس ، ثم قسم الباقى على الناس ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألفاً ، وكلهم كان فارساً ليس فيهم رجل ، وقسم الدور وأنزل العيالات ، وجىء بالقطف وهو بساط واحد ، وهم بتقسيمه ، ولكنه رأى أنه إذا قسم فقد رونقه وقلت قيمته ، ورأى أن لو أرسل به إلى عمر لرأى الناس شيئاً عجباً ، فالتفت إلى من عنده وقال :

ـــ هل لكم فى أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر

فيضعه حيث يرى ، فإنا لا نراه يتفق قسمته ، وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً .

فقالوا جميعاً :

— نعم .

وجيء بالخمس وفيه ثياب كسرى وحليه وتاجه وسيفه وسيف النعمان والقطف العظيم ، وحملت هذه الأشياء جميعاً على الرواحل ، وانطلقت القافلة إلى المدينة تحمل أعجب ما ورد إليها ، وأنفس ما شاهده العرب .

الفصل الخامس عشر

نفائس كسرى فى المدينة

« إن قوما أدوا هذا لأمناء » .

عمر بن الخطاب

انطلقت القافلة التى كانت تحمل نفائس الفرس تخب فى السير قاصدة المدينة ، وبينا كانت القافلة فى طريقها كان حليس الأسدى على ظهر فرسه ينطلق كالصاعقة داخلا المدينة ، ميمما صوب المسجد ؛ قاصدا أمير المؤمنين ليبشره بفتح المدائن ، وما حدث فى فتحها من أعاجيب .

وبلغ حليس المسجد فترجل عن فرسه ، ودخل فألفى عمر وعنده جمع من أصحابه ، فسلم عليه وراح يقص عليه كيف ركبوا اللجة عند عبور النهر ، وكيف فر الفرس مذعورين ، وكيف دخلوا قصر كسرى الأبيض ، وما وجدوا فيه من تحف رائعات ، وزينات تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب ، واستمر حليس يصف ما وقع وما حدث فى بيان رائع وحماسة أخاذة ، فراحوا جميعاً ينظرون إليه مأخوذين واستمر يصف لهم ما وجد المسلمون فى إيوان كسرى ، فقصر خيالهم عن أن يتتبع ما يصف ، أو يتصور ما يقول ، وكيف يتصورون ما لم يروا ، وما لم يخطر لهم على قلب ، وذكر حليس لعمر عن سعد الشىء الكثير ، وكيف أنه نبطى فى جبايته ، يقسم بالسوية ، ويعدل ، وينقل

إليهم حقهم نقل الذرة ، فأثلج صدر عمر .

مرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة ، فسرى نبأ وفودها بين الناس ، فخرجوا إلى المسجد ليروا عجائب كسرى التى طالما سمعوا عنها ، والتى طالما حدثهم المحدثون بعظمتها وندرتها ، وها هى عندهم ، وعما قليل تصير ملك يمينهم ، فالحمد لله الذى نفلهم هذا .

ووضعت القافلة أحمالها النفيسة ، وراح عمر يفحص الغنائم ، وعلى الرغم مما سمع بعظمتها ، فإنه وجدها أعظم مما قدر وتصور ، وبان على وجوه الناس الدهشة والعجب ، ونشر القطف العظيم ، فإذا هو بساط واحد ، ستون ذراعا فى ستين ذراعا ، فيه طرق كالصور ، وفصوص كالأنهار ، وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض ، وما إن وقعت أعين الناس على البساط حتى انبعثت منهم أصوات دهشة وعجب ، فالتفت عمر إلى من حوله وقال :

— إن قوما أدوا هذا لأمناء !

فقال على بن أبى طالب :

— إنك عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعت .

وأخذ عمر يفحص ثياب كسرى وتاجه وسيفه ودرعه ، ثم قال :

— على بمحلم .

فتقدم رجل ضخم ، وكان أجنسم عربى يومئذ بأرض المدينة ، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه وأجلس للناس ، فنظروا إليه فرأوا أمراً عظيما من أمر الدنيا وفتنتها ، وتطلع



.. ومرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة

عمر إلى الرجل طويلا ثم رد الطرف وهو يقول :

ــ أحمق بامرىء من المسلمين غرته الدنيا ، هل يبلغن مغرور منها دون هذا أو مثله ؟

واستمر الناس فى فرحهم ولكن عمر أطرق ، وأحس رهبة وخشية من الله فرفع رأسه إلى السماء وقال :

ــ اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك منى وأكرم عليك منى ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ، وأعطيتنيه ، فأعوذ أن تكون أعطيتنيه لتمكر بى !

ولم يستطع عمر أن يكبت خشيته ، فانخرط فى البكاء ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف وقال :

ــ يرحمك الله يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر :

ــ أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسى .

وقام عمر وانصرف ، وراح عبد الرحمن يبيع نفائس كسرى .

قسم عمر الفئ بين الناس ، وبقى البساط العظيم لا يدرى ما يفعل به ، أيقسمه بين الناس ، أم يبقيه درة من الدرر ؟ وإذا أبقاه ففى حوزة من يبقى ! إن بيعه أمر عسير ، على الناس غير يسير ، فلا يقوى على شرائه أحد . وأخيراً عزم على استشارة الناس ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ أشيروا على فى هذا القطف .

فأشار بعضهم بقبضه ، وأشار بعضهم بتفويض الأمر له فقالوا :

ــ قد جعلنا ذلك فر رأيك .

ولكن على بن أبى طالب تقدم وقال :

ـــ لم تجعل علمك جهلا ، ويقينك شكا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت . إنك إن تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له .

فقال له عمر : صدقتنى ونصحتنى .

وأمر عمر بتقسيم القطف فقسم ، وأخذ على نصيبه وباعه بعشرين ألفا .

الفصل السادس والعشرون

جلولاء الوقيعة

استقر سعد فى إيوان كسرى ، وبعث العيون خلف الفرس المنهزمين ، وتصرمت الأيام ، واستجمعت الجيوش ، وفى يوم عاد عين من العيون ودخل على سعد فى الإيوان ، وراح يقص عليه ما رأى من أهل فارس فقال له :

ـــ انتهى الأعاجم بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء ، وتفرقت الطرق بهم ، وهم كل فريق منهم بالتوغل فى طريق ، فتذامروا وقالوا : « إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلموا فلنجتمع للعرب به ، ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذى نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا ، وأبلينا عذراً » واجتمعت كلمتهم على النزول بجلولاء ، وأقسموا لمهران ألا يفروا ، وأن يثبتوا لنا حتى الموت ، وأمرهم مهران أن يحفروا خندقا ، فأتموا حفره ، وأحاطوا به الحسك من الخشب ليكون حائلا بيننا وبين اقتحام الخندق عليهم ، وقد نزل يزدجرد بحلوان ، وراح يمدهم بالمال والرجال .

فأطرق سعد برهة ، واستأذن الرجل وخرج ، واستمر سعد فى تفكره ، وجاء عين آخر وأخبره أن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت فرأى سعد أن يكتب بذلك لعمر ، فكتب له ، وانتظر رده وهو على حذر ، يعد على الأعداء حركاتهم وسكناتهم . وجاء كتاب عمر يأمره فيه بأن يسرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى اثنى عشر ألفا ، فاستدعى سعد هاشما وأمره أن يتأهب للخروج

لقتال الفرس ، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو .

تم استعداد جيش المسلمين ، فخرج من المدائن فى عدة عظيمة ، على رأسه هاشم ، وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ، وانطلق إلى جلواء ، فلما رأى هاشم تحصن الأعاجم فى الخندق أحاط بهم وحاصرهم وشن عليهم هجوما شديدا ولكن لم ينل منهم شيئاً ، فإنهم قد تحصنوا بالخندق ، ورموا حول الخندق بحسك الخشب ، فما استطاعت الخيل أن تتقدم ، واستمر الأعاجم فى خندقهم يرمون المسلمين بالنبل ، ومرت الأيام ووصل لأهل فارس مدد من حلوان ، فخرجوا يزاحفون المسلمين فى زهاء وأهاويل ، واقتتل الجيشان قتالا رهيباً . وساعد الخندق أهل فارس على أن يقاتلوا ثم يرتدوا إلى خندقهم المنيع ، وقام هاشم فى الناس وقال :

ـــ هذا المنزل منزل له ما بعده .

واستمر القتال دائرا بلا هوادة أو لين ، وأمد سعد هاشما بالفرسان . ورأى الأعاجم أن حسك الخشب يعوقهم فى حركتهم ، فجعلوا فرضاً مما يليهم تصعد منه خيلهم ، فأفسدوا حصنهم .

خرج أهل فارس من الخندق لمناجزة المسلمين . فقام هاشم فى الناس وقال :

ـــ أبلوا الله بلاء حسنا يتم لكم عليه الأجر والمغنم .

ثم صاح فى أصحابه :

ـــ شدوا .

فانطلق فرسان المسلمين إلى فرسان الأعاجم ، واختلط الجميع ، وارتفع صليل السيوف ، وتبودل الضرب والطعن وأخذ القعقاع يفتك بالأعداء فتكا ذريعاً ، ومدت السماء يدها لمعاونة المسلمين فهبت ريح شديدة فلم يستطع

الأعاجم إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم فى الخندق ، وانقض المسلمون عليهم ، ولكنهم راحوا يرمون حول الخندق بحسك الحديد ، فعاق ذلك تقدم خيل المسلمين .

راح من فى الخندق يسوون صفوفهم لاستئناف القتال . فلما تم لهم ما أرادوا خرجوا ثانية فى جموع هائلة وقد عزموا على أن يثبتوا للمسلمين ، فقد انقضى ثمانون يوما وهم فى خندقهم محاصرون فما هزموا المسلمين ، وما هزمهم المسلمين ، فليكن هذا اليوم يوم الفصل . خرجوا ليقاتلوا أعداءهم الذين هزموهم فى ديارهم وشتتوا شملهم ، وسبوا نساءهم ، وقد وطنوا عزمهم على الاستماتة فى قتالهم عسى أن يزيحوهم عنهم ، وأن يردوهم على أعقابهم .

ودارت رحى معركة رهيبة شديدة بين الطرفين ، معركة سالت الدماء فيها أنهارا ، وقاتل أهل فارس قتالا ما قاتلوا مثله من قبل ، ونفد النبل ، ونفد النشاب ، وقصفت الرماح ، فاستل الناس أسيافهم ، وسقطت أشعة الشمس على الأسياف فكانت تعكس ضياء يخطف الأبصار ، وصال الفرسان وجالوا ، واستمر المنون حاضنا ميدان المعركة . ولما استوت الشمس فى كبد السماء وحضرت الصلاة صلى المسلمون إيماء حتى إذا كان بين الصلاتين خنست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها .

نظر القعقاع إلى المسلمين فرأى الإعياء قد بدا عليهم ، فخشى مغبة ذلك ، فالتفت إليهم وقال :

ــ أهالتكم هذه ؟

ــ نعم . نحن مكلون ، وهم مريحون ، والمكان يخاف لعجز إلى أن يعقب .

ــ إنا حاملون عليهم ومجالدوهم ، وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله

بيننا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم .

وانطلق القعقاع إلى الأعداء ، فانطلق الناس خلفه ، واستؤنفت المعركة فكانت أشد وأمر ، وأخذ النهار فى التصرم ، فتصرمت معه أرواح خلق كثيرين ، وأقبل الليل وألبسهم رواقه فأخذ الأعداء يمنة ويسرة ، ورأى القعقاع أن المسلمين قد تحاجزوا مع الليل ، ولكنه رأى بثاقب نظره أن لو صبر المسلمون قليلا لانتصروا على الأعداء نصرا مؤزرا ، فأوعز إلى أحد أصحابه أن يصيح :

ـــ أين تحاجزون وأميركم فى الخندق ؟!

صاح الرجل ، وماصك صوته آذان القوم ، حتى ثارت الحماسة فيهم ، فكيف يتحاجرون وأميرهم بين الأعداء ، فاستأنفوا القتال ليبلغوا أميرهم وراح القعقاع يشق طريقه عند مدخل الخندق ، وبينما القتال الرهيب يدور ، إذ خلجت أصوات فى الفضاء :

الله أكبر ! الله أكبر !

فشد ذلك من أزر المسلمين ، إنه مدد قد جاء ، وزلزل الأعداء زلزالا شديداً ، وتقدم المدد وعلى رأسه عمرو بن معد يكرب ، وراح الناس يشقون طريقهم صوب الخندق حتى بلغوه ، فألفوا القعقاع يقاتل فيه ، فانضموا إليه ، ودار القتال داخل الخندق ، ففر مهران والفيرزان ، وسقط الأعاجم مجدلين تحت ضربات السيوف ، وعقرت دوابهم ، فجللت القتلى المجال ، وانهزم أهل فارس هزيمة نكراء .

أخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فإذا هى عظيمة لا تقدر ، كثيرة فوق ما كانوا يتصورون ، وعاد الناس بالغنائم إلى هاشم فجمعها

وقسمها ، فحجز الخمس لسعد ، وقسم الباقى بين الناس ، فكان نصيب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ؛ ورجع هاشم بالأخماس إلى سعد .

أرسل سعد إلى المدينة خمس الفئ والسبايا فى قافلة طويلة ، وكان فى القافلة زياد بن أبى سفيان .

فلما بلغت القافلة يثرب ، ورأى عمر جسامة الخمس بان الرضا فى وجهه ، وفكر أين يضعه حتى يقسمه ، فالتفت إليه عبد الله بن الأرقم وقال :

ـــ اجعلها فى بيت المال حتى نقسمها .

فقال عمر :

ـــ والله لا يظلها سقف بيت دون السماء .

فطرحت بين صفتى المسجد صفة النساء وصفة الرجال ، وطرحت عليها الأنطاع ، وبات عبد الله بن الأرقم وعبد الرحمن بن عوف يحرسان ما أرسله سعد .

وقابل زياد بن أبى سفيان عمر ، وراح يقص عليه ما فعل المسلمون من أعاجيب فى قتال الفرس حتى هزموهم فى جلولاء ، واستمر يصف له ما حدث بأسلوب أخاذ وحماسة غالبة ، حتى أسر عمر ، فالتفت إليه عمر وقال :

ـــ هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به ؟

فقال زياد :

ـــ والله ما على الأرض شخص أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك ؟!

وأصبح الصباح ، وخرج عمر إلى المسجد ، واجتمع الناس وكشف عمر عن نفائس أهل فارس ، فرأى الذهب والفضة ، فظهر عليه التأثر ثم غامت عيناه بالدمع ، ثم انهمر الدمع حتى بل لحيته ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف

وقال :

ــ ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور .

فقال عمر :

ــ لا والله ، ما فتح الله على قوم هذا قط إلا جعل بأسهم بينهم ، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء .

وقام زياد فى الناس ، وراح يصف لهم ما فعل إخوانهم من ضروب البطولة والإقدام ، وهدأ المكان وسكن الجميع كأن على رءوسهم الطير ، وتدفق زياد فالتفت إليه عمر وقال :

ــ هذا الخطيب المصقع .

فقال زياد :

ــ إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا .

* * *

أرسل سعد إلى هاشم أن يبقى بجلولاء ، وأن يسرح القعقاع فى آثار القوم حتى ينزل بحلوان ، فخرج القعقاع يجد فى أثر مهران والفيرزان ، وأدرك جيش المسلمين مؤخرة جيش الأعداء ، فدارت معركة بينهم وأخذ مهران يحض الأعاجم على الاستماتة فى القتال ، ولمحه القعقاع فاتجه إليه ، وأخذ الخصمان العنيدان يتبادلان الضربات ، فكانا كظبيين فى خفتهما ، وكأسدين فى بأسهما ، وأخذ كل منهما يتلقى ضربات غريمه ، وذارا حول نفسيهما ، وشد القعقاع على خصمه وضربه ضربة هائلة فتلقاها ، ولكن القعقاع عاجله بضربة ثانية ، فخر مهران مجدلا .

ورأى الفيرزان ما حل بمهران فولى الأدبار ، وانطلق إلى حلوان حتى دخل

على يزدجرد ، فراح يقص عليه ما فعل المسلمون بهم ، والوجل يتملكه ، واليأس مستول عليه ، فانتقل الذعر منه إلى يزدجرد ، فجمع ما يستطيع جمعه ، وخرج من حلوان فاراً نحو الرى ، قبل أن يكون مآل مهران مآله ، وترك بها خيلا عليها خسرو ، ولو أنصف لما ترك بها أحدا فلن يعترض سبيل المسلمين شيء ، ولن يقف فى سبيله أحد .

سار القعقاع بعد مقتل مهران قاصداً حلوان ، فلما أصبح على بعد فرسخ منها ، خرج له خسرو ، ودارت معركة بين الجيشين ، وكانت الدائرة على الفرس ، فدخل القعقاع وجيشه حلوان وغنموا شيئا كثيراً .

كتب سعد إلى عمر بنزول القعقاع بحلوان ، وطلب منه الإذن فى اتباعهم ، ولكن عمر أبى وأرسل إليه :

ــ لوددت أن بين السواد وبين الجبل سد ، لا يخلصون إلينا ، ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال .

الفصل السابع والعشرون

إلى الكوفة

إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان »

(عمر بن الخطاب)

نزل الناس بالمدائن ، وكان بها ذباب كثير ، وغبار يثور ، فتغير لون الناس ، ونظر حذيفة إلى إخوانه فرأى أجسامهم التى كانت كالرماح المشرعات قد ترهلت ، وعوامل الاعتلال قد بانت عليهم ، فألفى من الخير أن يكتب إلى عمر ، لعل عمر بما عرف عنه من الاهتمام بأمر الناس يجد لذلك الاعتلال علاجا ، فكتب إليه : « إن العرب قد أترفت بطونها ، وخفت أعضادها ، وتغيرت ألوانها » وبلغت رسالة حذيفة عمر ، وحدث أن جاءت وفود العرب إلى المدينة تحمل أنباء نزول القعقاع حلوان وفتح تكريت والموصل ، فأخذ عمر يتفرس فى هؤلاء الذين جاءوا من المدائن ، وقال :

ــ والله ما هيئتكم بالهيئة التى بدأتم بها ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن ، وأنهم لكما بدأوا ، وقد انتكيتم ، فما غيركم ؟.

ــ وخومة البلاد .

أقلقت هذه الحالة عمر ، فأرسل إلى سعد يسأله : « أنبئنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكان جواب سعد : وخومة البلاد » ، إذن لا بد من ترك المدائن والبحث عن مكان آخر يصلح لسكن هؤلاء الذين اعتادوا جفاف الصحارى ، فكتب إلى سعد : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها

من البلدان ، فابعث سلمان رائدا وحذيفة ، فليرتادا منزلا بريا بحرياً ، وليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » .

بعث سعد سلمان وحذيفة يرتادان البلدان ، ويبحثان عن مكان يوافق الناس ، فخرج سلمان وسار فى غرب الفرات وانطلق حذيفة فى شرق الفرات ، وأخذا يفحصان وينقبان ويستقصيان ، وبلغ سلمان مكان الكوفة ، فأعجبه مناخه ، والتقى الرائدان ، واتفقا على أن هذا المكان هو أصلح مكان فى البلدان يوافق العرب ، فصليا به ، ولما انتهيا من صلاتهما رفعا أيديهما إلى السماء ، وراحا يدعوان :

ـــ اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هوت ، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت ، والخصاص وما أجنت ، بارك لنا فى هذه الكوفة ، واجعله منزل ثبات .

قدم سلمان وحذيفة على سعد ، وأخبراه عن الكوفة ، فكتب سعد إلى القعقاع أن يوافيه ومن معه فى المدائن بعد أن يخلف على حلوان أحداً ؛ فلما توافى الجند بالمدائن ، ارتحل سعد بالناس وانطلقوا حتى وافوا الكوفة ، فعسكروا بها .

نزل الناس بالكوفة فاستردوا هيئتهم ، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا ؛ ورأوا من الخير لهم أن يشيدوا بيوتا من القصب ينزلونها بدل الخيام ، فاستشاروا سعداً ، ولكن سعداً ما كان ليقطع بأمر دون أن يرجع إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إليه يستأذنه ، فأرسل إليه عمر : « العسكر أجد لحربكم ، وأذكى لكم ، وما أحب أن أخالفكم ؛ وما القصب ؟ » فأرسل سعد إليه : « العكرش إذا روى قصب فصار قصباً » فأذن لهم سعد ، فابتنوا لهم من القصب بيوتاً ، وشبت حريق فالتهمت البيوت ، فعادوا إلى خيامهم ، ولكنهم وجدوا من

العسير عليهم أن يستبدلوا البيوت التى ألفوا الراحة فيها بالخيام ، فاستأذنوا سعداً فى أن يبنوا بيوتاً من اللبن ، فأرسل إلى عمر وفداً يسألونه أن يأذن لهم ، فقص الوفد عليه ما فعل الحريق ببيوتهم ، وأخذوا يحدثونه عن منازل اللبن ، فقال لهم :

ـــ افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة .

ثم عهد عمر إليهم ألا يرفعوا بنياناً فوق القدر ، فسألوه :

ـــ وما القدر ؟

ـــ ما لا يقربكم من السرف ، ولا يخرجكم من القدر .

وأخذ عمر يذكر لهم ما يتبعونه فى تخطيط الطرق والأزقة ، وعاد الوفد إلى سعد ، وأخبروه خبرهم ، فاستدعى سعد رجاله ، وابتدأ تخطيط الكوفة فبنى أول ما بنى المسجد ، ولما تم المسجد ، وقف رجل شديد النزع فى وسطه ، فرمى عن يمينه ، ومن بين يديه ، ومن خلفه ، وقال سعد :

ـــ من شاء أن يبنى فليبن وراء هذه السهام .

وخططت الطرق ، فكانت المناهج أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بين ذلك عشرين ، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شىء .

وبنيت السوق وبنيت دار لسعد عرفت بالقصر ، وجعل فيها بيت المال ، وأنشئ من نقض آخر قصر كان للأسرة فى ضواحى الحيرة ، وبنيت المنازل ، ودبت فى الكوفة الحياة ، وكان قصر سعد بلا باب ، وكان بجوار الأسواق ، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً الحديث ، فابتنى للقصر باباً ، ونفس بعضهم على سعد ، فانطلقوا إلى المدينة حتى جاءوا عمر وقالوا له :

ـــ ابتنى سعد دارا يقال لها القصر ، واحتجب فيها ، ولم يكتف بذلك بل

جعل لها باباً وقال : « سكن عنى الصويت » وراحوا يوغرون صدر عمر عليه ، فأرسل محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة وقال له :

ـــ اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودتك على بدئك .

انطلق محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأغذ فى السير حتى بلغها ، فاتجه إلى السوق ، ورأى قصر سعد ، فاشترى حطبا ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب .

علم سعد أن باب قصره قد أحرق ، فقال :

ـــ هذا رسول أرسل لهذا الشأن .

أيقن سعد أن من حرق بابه رسول عمر ، فراح يبحث عنه فى الكوفة ويستقصى أخباره ، وبعث أصحابه ليعرف من هو ، وعاد أحد رسله إليه وقال :

ـــ إنه محمد بن مسلمة وهو فى الخارج .

ـــ قل له أن يدخل .

وغاب الرسول مدة ثم عاد إلى سعد وقال :

ـــ إنه يأبى .

فنهض سعد وانطلق حتى أتى محمداً عند الباب ، فأراده أن يدخل وينزل عنده ، فأمعن فى الرفض ، ثم مد يده بكتاب عمر ، ففضه سعد وأخذ يقرأ :

« بلغنى أنك بنيت قصرا ، اتخذته حصنا ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً مما يلى بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » .

فسكت سعد برهة ثم أخذ يحلف أنه ما قال الذى قالوا ، وهم محمد بن مسلمة بالرجوع ، فعرض عليه سعد أن يتزود ولكنه أبى ، وقفل عائدا ، وقبل

أن يبلغ المدينة ، نفد زاده ، فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر ، وبلغ عمر وقد بان عليه الجهد من الجوع ، فسأله عمر عما به ، فقص عليه قصته ، فقال عمر :

— فهلا قبلت من سعد !!

— لو أردت ذلك كتبت لى به ، أو أذنت لى فيه .

لم يشأ محمد أن يأخذ من سعد ما يتزود به ، لأن أمير المؤمنين لم يكتب له بالزاد ، فقال له عمر :

— إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل . وما قال سعد ؟

— أقسم أنه لم يقل ما بلغ أمير المؤمنين .

فبان فى وجه عمر التصديق وقال :

— هو أصدق مما روى عليه وأبلغنى .

الفصل الثامن والعشرون

الهرمزان

« الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه » .

(عمر بن الخطاب)

ضاق صدر يزدجرد بالهزيمة وشاء أن يطلق آخر سهم فى جعبته ، فكتب إلى أهل فارس ، يذكرهم الأحقاد ، ويحرك هممهم ، ويقول لهم مؤنبا أن قد رضيتم أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى يوردوكم فى بلادكم وعقر داركم .

فراح أهل فارس وأهل الأهواز يتعاقدون ويتواثقون على النصرة ، فتجمعوا ، وبلغ عمر خبر تجمعهم ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفا مع النعمان بن مقرن معه سويد بن مقرن وجرير بن عبد الله البجلى .

خرج النعمان فى أهل الكوفة ، فأخذ وسط السواد ، حتى قطع دجلة ، ثم أخذ البر على البغال إلى الأهواز ، ولما جاء سوق الأهواز ، انطلق لملاقاة الهرمزان ، وشاء الهرمزان أن يعاجل المسلمين لعله ينتصر عليهم ، فيرد إلى فارس اعتبارها ، فبادر النعمان الشدة ، واقتتل الجيشان قتالا شديدا ، ودارت الدائرة على الهرمزان ، فلحق بتستر ، وانطلق النعمان فى إثره .

بلغ النعمان تستر ، وحاصرها ودار بين رجال الهرمزان ورجال النعمان قتال رهيب ، وأخيرا سقطت المدينة ، واعتصم الهرمزان بقلعة من القلاع ،

وشاهده بعض رجال المسلمين فأسرعوا إليه ، حتى بلغوا مكانا ضيقا من القلعة وأصبحوا أمام الهرمزان وجها لوجه فصاح فيهم :

ـــ ما شئتم ؛ قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعى فى جعبتى مائة نشابة ، ووالله ما تصلون إلى ما دام معي منها نشابة ، وما يقع لى سهم ، وما خير إسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ؟

ـــ فتريد ماذا ؟

ـــ أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنع بى ما شاء .

ـــ فلك ذلك .

فرمى الهرمزان قوسه ، ووقف منتصبا لا يقاوم . فتقدموا منه وشدوه وثاقا .

أرسل الهرمزان إلى المدينة ، وانطلق الوفد به ، فلما بانت لهم أرباض يثرب ، أغذوا فى السير ، ولما دخلوها هيئوا الهرمزان فى هيئته ، فألبسوه كسوة من الديباج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا مكللا بالياقوت وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون ، وانطلق الوفد إلى بيت عمر ، فقيل لهم إنه خرج ، فساروا فى طرقات المدينة والناس حولهم ، ومروا بغلمان يلعبون ، فسألهم الغلمان : « من تريدون ؟ أمير المؤمنين ؟ » .

ـــ أجل .

ـــ إنه نائم فى ميمنة المسجد .

فانطلق الناس إلى المسجد ، فألفوا رجلا نائما متوسدا برنسه ، ولا أحد فى المسجد غيره ، فانطلقوا وجلسوا دونه ، فراح الهرمزان يدير عينيه فى المسجد ، فلا يجد إلا رجلا نائما وفى يده درة معلقة ، فسأل الوفد :

ـــ أين عمر ؟

ــ هو ذا .

وأشاروا إلى الرجل النائم ، فظهر العجب على وجه الهرمزان ، وارتفعت أصوات الناس ، ولكن الوفد أشاروا إلى الناس أن اسكتوا .

وقال الهرمزان :

ــ أين حرسه وحجابه ؟

ــ ليس حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان .

ــ فينبغى أن يكون نبيا !

ــ بل يعمل عمل الأنبياء .

وحدثت جلبة ، وأخذ الناس يموجون بعضهم فى بعض ، فاستيقظ عمر وفتح عينيه ، فوقع بصره على رجل أعجم فى ملابس فاخرة ، وعلى رأسه تاج يتلألأ ، فاستوى جالسا ، وسأل من حوله :

ــ الهرمزان ؟

ــ نعم .

فأخذ عمر يتأمله ويتأمل ما عليه ثم قال :

ــ أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ، والحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه .

ثم التفت إلى الناس وقال :

ــ يا معشر المسلمين ، تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال له الوفد :

ــ هذا ملك الأهواز فكلمه .

ــ لا . حتى لا يبقى عليه من حليته شيء .

فجردوه من ثيابه إلا ما يستره ، ثم ألبسوه ثوبا صفيقا . وقال له عمر :

ـــ هيه يا هرمزان ، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟

ـــ يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .

ـــ إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا .. ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة ؟

ـــ أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك .

ـــ لا تخف ذلك .

ـــ أريد أن أشرب .

فأتى بماء فى قدح غليظ ، فقال الهرمزان :

ـــ لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا .

فأتى بماء فى إناء يرضاه ، فتناوله وجعلت يده ترتجف ، ثم التفت إلى عمر وقال :

ـــ أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .

فقال عمر :

ـــ لا بأس عليك حتى تشربه .

فألقى الهرمزان بالماء ولم يشربه ، فقال عمر :

ـــ أعيدوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .

ـــ لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به .

ـــ إنى قاتلك .

ـــ قد أمنتنى .

ـــ كذبت .

فقال أنس ، وكان واقفاً مع الناس يسمع :

ـــ صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته .

ـــ ويك يا أنس .

ـــ قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى ، وقلت لا بأس عليك حتى تشربه .

وشهد الناس بمثل ذلك ، فأطرق عمر قليلا ثم رفع رأسه والتفت إلى الهرمزان وقال :

ـــ خدعتنى ، والله لا أنخدع إلا لمسلم .

فأسلم الهرمزان ، وفرض له عمر ألفين ، وأنزله المدينة .

الفصل التاسع والعشرون

فتح الفتوح

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن
نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا
فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾

(قرآن كريم)

شتت سعد الأعاجم ، واستقر فى الكوفة ، وعلا شأنه ، وأرسل العيون وراء القوم الفارين خشية أن يتجمعوا ويفاجئوه ، فأكلت الغيرة بعض القلوب ، فراح الجراح بن سنان الأسدى يجمع بعض نفر من بنى أسد لينطلقوا إلى عمر فى المدينة وليؤلبوه على سعد ، وتمكن الجراح من جمع بعض نفر ، وراحوا يتحينون الفرصة للخروج من الكوفة إلى المدينة لإنفاذ ما بيتوه بليل .

وعلم سعد أن يزدجرد كاتب أهل الجبال من بين الباب والسند وخراسان وحلوان ، فتحركوا وتكاتبوا ، وركب بعضهم إلى بعض ، فأجمعوا أن يوافوا إلى نهاوند ، ويبرموا فيها أمورهم ، وبلغه أنهم قالوا : إن محمداً الذى جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده ، فلم يغرض غرض فارس إلا فى غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلى بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم ،

وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد أخرب بيت ملككم ، وليس بمنته حتى تخرجوا من فى بلادكم من جنوده ، ثم تشغلوه فى بلاده ، فأرسل سعد إلى أمير المؤمنين رسولا بالخبر ، وكتب له : « إن أهل الكوفة يستأذنونك فى الانسياح إلى أن يبادروهم الشدة » .

خرج رسول سعد ، وخرج أولئك النفر الذين اتفقوا على الشخوص إلى أمير المؤمنين للإيقاع بينه وبين سعد ، وأخذ سعد يستعد لاستئناف قتال أهل فارس فى عقر دارهم ، إنه يعلم أنهم جاءوا قبل أن يبادرهم الشدة ، ازدادوا جرأة على المسلمين وقوة .

وكان سعد بن أبى وقاص قد استعمل النعمان بن مقرن على كسكر يجبى الخراج ، ولكن النعمان رجل جهاد وقتال ، فلم يرض بهذا العمل ، ولم يطب به نفسا ، إنه يتوق إلى النزال ، فما لمثله وما لجمع المال ، فكتب إلى عمر : « إنى قد تقت إلى الجهاد ، ومثلى ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطر ، فأنشدك الله لما عزلتنى عن كسكر ، وبعثتنى إلى جيش من جيوش المسلمين » .

وصل رسول سعد إلى عمر ، وبلغه كتاب النعمان ، فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إلى يذكر أنك استعملته على جباية الخراج . وأنه كره ذلك ورغب فى الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى نهاوند » ؛ وبينا كان سعد يجهز الجيوش التى ستخرج من الكوفة لقتال الأعداء ، كان أولئك النفر الذين خرجوا من الكوفة للإيقاع بسعد عند عمر يحادثونه ويخوضون فى سعد ؛ فقال أحدهم :

— إنه لا يقسم بالسوية .

وقال الثانى :

ـــ إنه لا يعدل فى الرعية : ولا يغزو فى السرية .

وقال الثالث :

ـــ إنه لا يحسن الصلاة .

فأطرق عمر برهة ، ثم رفع رأسه وقال :

ـــ إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر ، وقد استعد لكم من استعد ، وأيم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم ، وإن نزلوا بكم .

ونادى عمر محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة للنظر فى هذه الشكوى .

بلغ محمد بن مسلمة الكوفة ، وكانت تموج بالناس موجا ، وتعج عجيجا ، وكانت الجيوش تتأهب للخروج ، وانطلق محمد إلى قصر سعد ، فدخل وأعلمه ما جاء به ، ثم أخذه وراح يطوف به على مساجد الكوفة يسأل الناس عنه علنا ، فليست المسألة فى السر من شأنهم ، وبلغا مسجداً ، فسأل محمد الناس :

ـــ ما رأيكم فى سعد ؟

ـــ لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهى به بدلا ، ولا نقول فيه ، ولا نعين عليه .

فانطلقا إلى مسجد آخر ، وسأل محمد الناس :

ـــ أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال .

فقال رجل :

ـــ إنه ليعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية .

واستمر الطواف على مساجد الكوفة حتى انتهيا إلى بنى أسد ، قبيلة الجراح بن سنان ، وسألهم محمد عن سعد ، فقال أحدهم :

— إن الصيد يلهيه .

وقال آخر :

— إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يحسن الصلاة ، ولا ينفر فى السرية .

فظهر الغضب فى وجه سعد وقال :

— إنى لأول رجل أهرق دما من المشركين ، ولقد جمع لى رسول الله ﷺ أبويه ، وما جمعهما لأحد قبلى ، ولقد رأيتنى خمس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أنى لا أحسن أصلى ، وأن الصيد يلهينى ؟!.

وأمر محمد سعداً أن يتأهب للانطلاق والقوم إلى عمر ليرى رأيه ، فترك عبد الله بن عبد الله بن عتبان خلفا له على الكوفة ، وخرج تاركا خلفه الكوفة وجيوش المسلمين المتأهبة للخروج ، وبلغ القوم عمر فقص محمد بن مسلمة عليه ما رأى وما سمع ، فالتفت عمر إلى سعد وقال :

— يا سعد ويحك ! كيف تصلى ؟.

— أطيل الأوليين ، وأحذف الأخريين .

— هكذا الظن بك يا أبا إسحاق .

وخرج سعد بريئا مما ألصق به ، ولكن عمر شاء أن يبقيه فى المدينة فسأله :

— من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟

— عبد الله بن عبد الله بن عتبان .

والتفت عمر إلى من حوله وقال :

— من يعذرنى من أهل الكوفة ، إن وليت عليهم التقى ضعفوه ، وإن وليت عليهم القوى فجروه .

فقال له المغيرة :

— يا أمير المؤمنين ، إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه ، والقوى

الفاجر لك قوته وعليه فجوره .

فنظر عمر إلى المغيرة وقال :

ـــ صدقت ، فأنت القوى الفاجر ، فاخرج إليهم .

وأخذ سعد يقص على عمر أنباء تجمع الفرس . وعمر مطرق يفكر ، وانتهى سعد من حديثه فاستأذن وانصرف ، وبقى عمر يفكر فى أمر الفرس وتجمعهم ، وفيما هو فى تفكيره ، أقبل رسول من الكوفة يحمل رسالة بأنه قد تجمع من الفرس خمسون ومائة ألف مقاتل ، وأنه ينبغى مبادرتهم الشدة ؛ فلما انتهى عمر من قراءة الكتاب ، التفت إلى الرسول وسأله :

ـــ ما اسمك ؟

ـــ قريب .

ـــ ابن من ؟

ـــ ابن ظفر .

فأشرق وجه عمر وقال :

ـــ ظفر قريب إن شاء الله .

وأمر المنادى أن ينادى . « الصلاة جامعة » فأقبل الناس وكان أول من دخل المسجد سعد بن أبى وقاص ، فلما وقعت عين عمر على سعد تفاءل وقام على المنبر وخطب الناس وذكر لهم خبر تجمع الفرس واستشارهم ، وقال :

ـــ هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبرونى وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأى ، أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ، ومن قدرت عليه حتى أنزل وسطا بين هذين المصرين ، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءا ، حتى يفتح الله عليهم ويقضى

ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم فى بلادهم وليتنازعوا ملكهم .

فقام طلحة بن عبيد الله خطيبا ، فقال :

ـــ أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، واحتنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو فى يديك ، ولا نكل عليك ، إليك هذا الأمر فمرنا نطع ، وادعنا نجب . واحملنا نركب ، ووفدنا نفد ، وقدنا ننقد ، فإنك ولى هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختبرت ، فلم ينكشف شىء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار .

وانتهى طلحة من خطبته فجلس ، وساد المكان سكون وهدوء ، فقال عمر :

ـــ إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا .

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال :

ـــ أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشأم فيسيروا من شأمهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ، فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة ، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل فى نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ، ولا تلوذ منها بحريز ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

وجلس عثمان وعاد السكون إلى المكان ، فعاد عمر وقال :

ـــ إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فتكلموا .

فقام على بن أبى طالب وقال :

ـــ أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن أشخصت أهل الشأم من شأمهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء فى أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق ، فلتقم فرقة لهم فى حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة فى أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لطلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم ، فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكنا كنا نقاتل بالنصر .

وجلس على ، وقام سعد فتطلع الناس إلى قاهر الفرس ، ومزلزل ملكهم ، وأصاخوا السمع ليسمعوا كلام أعلم الناس بحرب فارس ، فقال سعد :

ـــ يا أمير المؤمنين خفض عليك ، فإنهم إنما جمعوا لنقمة ، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلاته لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهر ، وجنده الذى أعز ، وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

جلس سعد وقد سرى فى نفوس الناس اليقين ، وانصرفوا وكلمات سعد ترن فى آذانهم : « نحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده » .

* * *

أرسل عمر إلى النعمان أن يخرج إلى نهاوند وأمره أن يسير بأمر الله وبعون

الله ، وبنصر الله ، بمن معه من المسلمين ، وكتب إليه : أن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، وكتب إلى الأمصار أن يسيروا الجند لموافاة النعمان بنهاوند ، وبقى سعد فى المدينة يتنسم أخبار المعركة ، ومرت الأيام ، وراح سعد يخرج إلى ظاهر المدينة ، فيتنطس الأخبار ؛ وفى ليلة من الليالى مر به راكب يريد المدينة ، فسأله سعد :

ــ يا عبد الله من أين أقبلت ؟

ــ من نهاوند .

ــ ما الخبر ؟

ــ خير ، فتح الله على النعمان ، واستشهد ، واقتسم المسلمون فى نهاوند ، فأصاب الفارس ستة آلاف .

فأطرق سعد ، وحزن على النعمان ، وغامت عيناه بالدمع ، وراح يقاوم حزنه ، ولكن انهزمت الدموع من عينيه ، فبكى حتى بل لحيته .

الفصل الثلاثون

مفترق الطرق

« ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى »

(عمر بن الخطاب)

ابتدأ مولد النهار ، واعتلى المؤذن المسجد ، وارتفع صوته بالأذان يدعو الناس إلى صلاة الصبح ، فخرج الناس من دورهم ، وانطلقوا إلى المسجد ليصلوا خلف عمر . انطلقوا بنفوس هادئة ، وما دار بخلدهم أن اليوم يختلف عن سائر الأيام ، وما دروا أنهم بعد قليل سينقلب هدوؤهم صخبا ، وطمأنينتهم قلقا ، ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب لعلموا أن هذا اليوم يوم فاصل بين عهدين ، يوم له ما بعده .

وخرج عمر من داره ، وانطلق إلى المسجد لا يلوى على شيء ، انطلق ليحمل عبء المسلمين فى جميع الأمصار ، وما علم إنه عما قليل يوضع عن كاهله ذلك العبء الجسيم ، ودخل المسجد وأم القوم ، وقبل أن يكبر التفت خلفه فرأى المسلمين قد سووا الصفوف ، وسدوا الفرجات ، فطابت نفسه ، وكبر وهم بقراءة القرآن ، ولكن رجلا دخل فى الناس ، وراح يشق الصفوف حتى بلغ عمر ، فراح يطعنه بخنجر معه ، وشاهد الرجل الواقف خلف عمر ، ما يفعل القاتل ، فانقض عليه ، ولكن القاتل عاجله بضربة سقط بعدها الرجل مجدلا ، وسقط عمر ، فحدث هرج ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، وانقضوا على القاتل وأخذوا بتلابيبه ، وراحت دماء عمر تتدفق ، فالتف

الناس حوله ، ولكن عمر سأل :

ـــ أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

ـــ نعم يا أمير المؤمنين ، هوذا .

وتقدم عبد الرحمن من عمر الذى قال له :

ـــ تقدم فصل بالناس .

وتقدم عبد الرحمن فجعل يصلى بالناس ، وعمر طريح ينزف دمه ، وخفف عبد الرحمن فى الصلاة ، ولما قضيت أسرع الناس إليه ، وحملوه إلى داره .

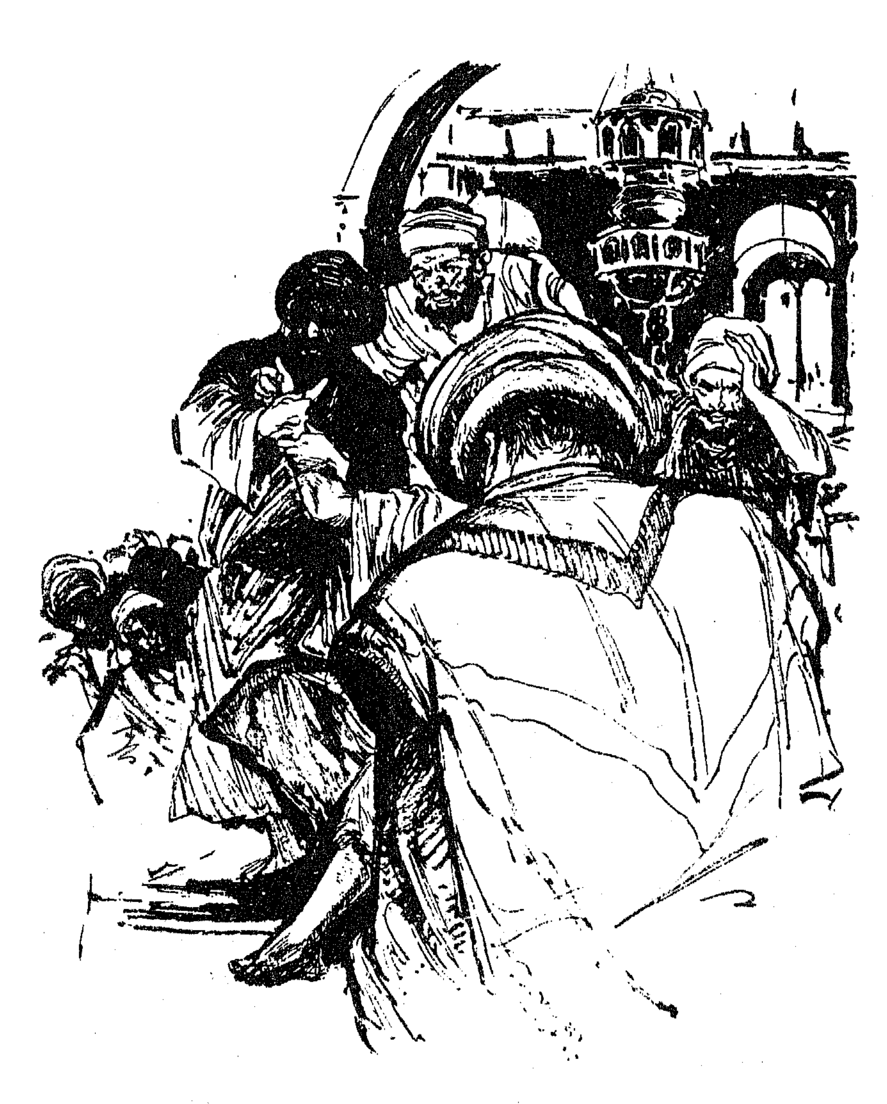
انطلق أصحاب عمر به إلى الدار ، وراح الناس يتحدثون عن أبى لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر ، فهذا يذكر أصله ، وذلك يحدث عن سبب حقده على عمر ، وثالث يقول إن عمر خرج يوما يطوف فى السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال : « يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة فإن على خراجا كثيرا » قال عمر : « وكم خراجك ؟ » قال : « درهمان فى كل يوم » قال عمر : « وما صناعتك ؟ » قال : « نجار نقاش حداد » قال عمر : « فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت » قال : « نعم » قال عمر : « فاعمل لى رحى » قال : « لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب » وها هو العبد ينفذ وعيده ، لقد طعنه طعنات سيتحدث بها من بالمشرق والمغرب .

وضع عمر فى فراشه ، والدم ينزف منه ، فالتفت إليه من عنده وقالوا له :

ـــ يا أمير المؤمنين لو دعوت الطبيب ؟

ـــ افعلوا .

فأرسلوا فى طلب طبيب من بنى الحارث فجاء فسقاه نبيذا ، فخرج النبيذ مشكلا فقال :



ولما قضيت أسرع الناس إليه وحملوه إلى داره

— اسقوه لبنا .

فسقوه لبناً ، فخرج اللبن أبيض ، وبان الضعف على عمر ، فقال له بعض من عنده :

— يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟

— من أستخلف ، لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة .

فقال رجل :

— أدلك عليه ، عبد الله بن عمر .

فظهر الضيق فى وجه عمر وقال :

— قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا فى أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فشر عنا آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر ، إنى لسعيد ، وانظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى . وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ، ولن يضيع الله دينه .

وخرج الناس من عند عمر ولم يعهد ولم يول أمر المسلمين أحدا ، واشتد الوجع عليه ، ولم يكن يفكر فى نفسه ، بل كان يفكر فى المسلمين الذين سيتركهم خلفه ، فرأى أن يدعو أصحاب النبى الذين توفى وهو عنهم راض ، فقال لعبد الرحمن بن عوف ، وكان عنده :

— ادع لى علياً وعثمان والزبير وسعدا .

فأرسل عبد الرحمن فى طلبهم فلما اكتمل عقدهم ، قال لهم عمر :

ـــ إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا ، واختاروا رجلا منكم .

وهموا بالانصراف ، ولكن عمر قال لهم :

ـــ لا تدخلوا حجرة عائشة ، ولكن كونوا قريبا .

ودخلوا حجرة قريبة ، وراحوا يتناجون ، وراح الدم ينزف من عمر ، وارتفعت المناجاة إلى نقاش ، ثم انقلب النقاش الهادئ إلى نقاش حاد ، فتضايق ابن عمر فصاح :

ـــ سبحان الله ، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد .

وبلغ صوت عبد الله بن عمر أذن أبيه ، فأشار عمر لهم أن أقبلوا فلما جاءوا قال لهم :

ـــ ألا أعرضوا عن هذا أجمعين ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع ألا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله ابن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لى بطلحة ؟

فقال سعد :

ـــ أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله .

ـــ أرجو ألا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين ؛ على أو عثمان ، فإن ولى عثمان ، فرجل فيه لين ، وإن ولى على ، ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعداً فأهلها هو ، وإلا فليستعن به

الوالى فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه . ودعا عمر صهيباً وأمره أن يصلى بالناس ثلاثاً بعد موته حتى يتفقوا على خليفة من بينهم ، وأرسل إلى عائشة يستأذنها فى أن يدفن بجوار صاحبيه الحبيبين محمد ﷺ ، وأبى بكر خليفة الرسول ، فأذنت له ، فاطمأنت نفسه ، واشتد به الوجع ، ودب فيه الوهن ، فراح يتمتم مستغفراً ربه ، ثم شخص بصره ، وفاضت روحه صاعدة إلى السماء راضية مرضية .

وبلغ الناس النبأ الفاجع ، فغشى وجوههم الإظلام ، وانطلق سعد وعلى وعثمان وعبد الرحمن والزبير إلى داره ليجهزوه ، وخيم الحزن على المدينة ، وأخذت الناس تندبه وتبكيه ، وبكت باكية عليه فقالت :

ــ واحرى على عمر حرا انتشر حتى شاع فى البشر .

تم جهاز عمر ، فحمله الناس إلى المسجد ، وسار سعد وعلى وعثمان والزبير والناس خلفه ، وقد بان الحزن فى وجوههم ، ووضع فى المسجد ، وتقدم على ليصلى عليه ، وتقدم عثمان ليصلى عليه ، فالتفت إليهما عبد الرحمن بن عوف وقال :

ــ لا إلـه إلا الله ، ما أحرصكما على الإمرة ، أما علمنا أن أمير المؤمنين قال : « ليصل بالناس صهيب ؟ » .

فتنحى على وعثمان ، وتقدم صهيب ، وصلى عليه ، ولما انتهى من صلاته تقدم الخمسة ، على وعثمان وسعد والزبير وعبد الرحمن وحملوه ، ونزلوا به القبر ، قبر عمر ، وخرج الخمسة من قبره ، وراح على ينفض رأسه ولحيته ثم قال :

ــ يرحم الله ابن الخطاب ، لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها .

وانطلق على وهو لا يشك أن الأمر يصير إليه ، وانطلق سعد يفكر فى أمر هذه الشورى .

الفصل الحادى والثلاثون

رهط الشورى

« أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة » .

(على بن أبى طالب)

دفن عمر ، وفرغ الناس لأمر دنياهم ، فراحوا يتساءلون عمن يكون خليفة بعده ، وسرى فى يثرب قلق ورهبة ، ترى ما يفعل من حصرت الخلافة فيهم ؟ وأشفق المشفقون على المسلمين أن ينشقوا طوائف وشيعاً ، وأن يدب الخلاف بينهم ولما يستقر الإسلام بعد فى الأمصار التى فتحوها ، وراح المخلصون يدعون الله أن يجنبهم فتنة الدنيا .

وأقبل سعد ، وكان شارد الفكر ، يفكر فى أمر الخلافة ، وراح يفكر فى منافسيه ، فرأى براجح عقله أن هناك من هو أحق بها منه ، وأيقن أنه لو تخلى وتنازل عن حقه لحصر الخلاف فى نطاق ضيق ، ولجنب المسلمين الانشقاق والتشاحن ، فراحت فكرة التنازل تراوده ، وتحتل فكره ، وبلغ سعد حجرة عائشة فدخلها ينتظر أهل الشورى ، وأقبل على وقابل عمه العباس ، والتفت إليه وقال :

ـــ سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان ، أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معى لم ينفعانى ، بله إنى لا أرجو إلا أحدهما .

فقال له العباس :

ـــ لم أدفعك فى شيء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله : فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى ألا تدخل معهم فأبيت ، احفظ عنى واحدة ، كلما عرضوا عليك القوم فقل : لا ، إلا أن يولوك .

ودخل على حجرة عائشة ، ثم أقبل عثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن ، ولم يقبل طلحة فقد كان غائبا ، ودخل ابن عمر ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة فجلسا بالباب ، فلمحهما سعد ، فحصبهما وأقامهما ، وقال لهما :

ـــ تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى .

ودار النقاش بين أهل الشورى ، وتنافس القوم ، وكثر بينهم الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وما كان كلامهم ليؤدى إلى نتيجة حاسمة ، فجعل كل منهم يذكر فضله وأحقيته بهذا الأمر دون الجميع ، ورأى عبد الرحمن بن عوف أن الأيام الثلاثة التى حددها الخليفة الراحل لاختيار الخليفة الجديد ستنقضى قبل اختيار أمير المؤمنين لو استمر الأخذ والرد ، والجذب والشد ، فقال :

ـــ أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟

فلاذ الجميع بالسكون ، وهم سعد أن يخرج نفسه ، ولكنه أحجم فإنه لا يريد أن يتحمل مسئولية تولية أفضلهم ، وساد السكون برهة ، فقال عبد الرحمن :

ـــ أنا أنخلع منها .

فقال عثمان :

ـــ أنا أول من رضى ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين فى

الأرض ، أمين فى السماء » .

فقال الزبير :

ـــ قد رضينا .

وقال سعد :

ـــ قد رضينا .

وظل على ساكنا لا ينبس ، وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القول قل لا ، إلا أن يولوك ، وهم أن يرفض هذا ، ولكن صوت عبد الرحمن رن فى أذنه :

ـــ ما تقول يا أبا الحسن ؟

فقال على :

ـــ أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة .

فقال عبد الرحمن :

ـــ أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .

فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله ؛ وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدى عبد الرحمن بن عوف .

انطلق عبد الرحمن حتى أتى علياً على انفراد ؛ فقال له :

ـــ إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك ، وسابقتك ، وحسن أثرك فى الدين ؛ ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ؛ من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

ـــ عثمان .

وانصرف من عند على وانطلق إلى عثمان وخلا به وقال له :

— تقول شيخ من بنى عبد مناف ؛ وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، لى سابقة وفضل ، ولم تبعد ، فلم يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

— على .

وانصرف من عند عثمان وقابل سعداً وحادثه ثم تركه ، وانطلق إلى الزبير ؛ وقابل على سعداً وكان معه الحسين فقال لسعد :

— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ ، وبرحم عمى حمزة منك ألا تكون لعبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان .

فأطرق سعد ولم يحر جوابا .

راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم ويسألهم عمن ينتخبونه خليفة لهم ، وانقضت الأيام ، ولم تبق إلا الليلة التى ينقضى فى صبيحتها الأجل ، وبلغ الجهد من عبد الرحمن منتهاه ، إنه لم يذق كثير غمض ، فأرسل فى طلب الزبير وسعد ، فوافاه الزبير فى المسجد . فسأله عبد الرحمن للمرة الأخيرة ، فقال الزبير :

— نصيبى لعلى .

وأقبل سعد فى سكون الليل ، والناس نيام ، وقابل عبد الرحمن ، وأخذ بأطراف الحديث ، فقال عبد الرحمن :

— أنا وأنت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار .

— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى . أيها

الرجل ، بايع نفسك وأرحنا وارفع رءوسنا .

— يا أبا إسحاق إنى قد خلعت نفسى منها على أن اختار . لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس .

— فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك ، فامض لرأيك . فقد عرفت عهد عمر .

أصبح الصباح ، وخرج الناس إلى المسجد زرافات زرافات ليروا ما قر عليه رأى رهط الشورى ، وصلى الناس الصبح ثم جمع عبد الرحمن الرهط ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وتوافدت جموع الناس حتى التج المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن فسكت الجميع كأن على رءوسهم الطير . وأعاروه سمعهم ليسمعوا ما ينطق به حكم القضاء . قال عبد الرحمن :

— أيها الناس : إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا من أميرهم .

فصاح أحدهم :

— إنا نراك لها أهلا .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا على بغير هذا .

فقال عمار :

— إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا .

فصاح ابن أبى سرح :

— إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمناً على هذا القول :

ــ صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .

فثار عمار وشتم ابن أبى سرح وقال :

ــ متى كنت تنصح المسلمين ؟

وراح بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضلهم ، وراح سعد يرقب ما يحدث ، فرأى الفتنة تطل عليهم ، وتتأهب لأن تنشب أظافرها فيهم فتمزق شملهم ، وتفرقهم شيعاً ، وصلك أذنيه صوت عمار وهو يصيح :

ــ أيها الناس : إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

وبلغ سمعه قول رجل لعمار :

ــ لقد عدوت طورك بابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فاقترب سعد من عبد الرحمن وقال له :

ــ يا عبد الرحمن : افرغ قبل أن يفتتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس ، فلاذوا بالصمت فقال :

ــ إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال :

ــ عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟

فسرى الأمل الدفء فى صدور أنصار على ، فعما قليل ينادى به خليفة للمسلمين ، وقال على :

ــ أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى .

ودعا عبد الرحمن عثمان وقال له :

ـــ عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة الخليفتين من بعده ؟

ـــ نعم .

ـــ إنى أبايعك أميراً للمؤمنين .

فثار أنصار على ، وأظهروا استياءهم من هذا القرار ، والتفت على إلى عبد الرحمن وقال :

ـــ حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون .

الفصل الثانى والثلاثون

عثمان أمير المؤمنين

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾ .

(قرآن كريم)

قال عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان :

ــ إنى أبايعك أميراً للمؤمنين .

وسمع الناس مقالة عبد الرحمن فانجفلوا إلى عثمان ، وراحوا يبايعونه ، وتقدم سعد منه وبايعه ، ثم تقدم الزبير ، وتلكأ على ، وخشى عبد الرحمن مغبة هذا التلكؤ ، فأسرع إلى على قبل أن يندلع لهيب الفتنة وقال له :

ــ « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

فراح على يشق الناس ، حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانية من المنبر وهو يقول :

ــ خدعة وأيما خدعة .

ثم تقدم منه وبايعه ، فاطمأنت القلوب ، فلن يشق أحد عصا المسلمين ، وبايع الناس وانصرف عثمان والناس معه إلى بيت فاطمة ابنة قيس ، وجلس على وسعد وعبد الرحمن والزبير معه ، فقام المغيرة خطيباً ، فقال : يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

ـــ يا ابن الدباغ ، ما أنت وذاك ، والله ما كنت أبايع أحداً إلا قلت فيه هذه المقالة .

ونظر عثمان إلى المغيرة وأطرق ، وقد اعتزم فى نفسه أمراً ، لقد اعتزم عزله عن الكوفة وتولية سعد بدله .

جلس عثمان فى المسجد ، وطلب من سعد أن يوافيه بعبيد الله بن عمر المحبوس فى داره ، فانطلق سعد ، وفى الطريق راحت الصور تمر فى مخيلته ؛ فرأى عمر والدم يتدفق من جراحه ، ثم رآه وهو يقضى ، ورأى بعين خياله ابنه عبيد الله وقد خرج من الدار بعد موت أبيه ، وقد اشتمل على السيف لا يلوى على شيء ، ومرت بخياله صورة ذلك الذى جاء مسرعاً يخبره أن عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه أعطى أبا لؤلؤة الخنجر الذى قتل به عمر ، ثم جاءه آخر وأنبأه أن عبيد الله قد قتل جفنية ظئره ، وتذكر خروجه مسرعاً ليرى ما حدث ، فوافى عبيد الله والسيف فى يده ، وهو يصيح : والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى ، والناس تخشى الاقتراب منه ، فانقض عليه ، ونزع منه السيف ، ولكنه راح يقاوم ويثور ويتوعد ، فجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيها ـــ تذكر سعد كل ذلك وهو فى طريقه إلى الدار ، ولما بلغ الدار ، أخرج عبيد الله وجاء به إلى عثمان ، فالتفت عثمان إلى من عنده وقال :

ـــ أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق .

فقال على :

ـــ أرى أن تقتله .

فقال بعض المهاجرين مستنكرين :

— قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟

وأدلى عمرو بن العاص بدلوه فقال :

— يا أمير المؤمنين : إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

فطأطأ عثمان رأسه قليلا ، ثم رفعها وقال :

— إلى بابن الهرمزان .

فجيء بابن الهرمزان ، ولما مثل بين يدى عثمان قال له :

— يا بنى : هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله .

فأخذ ابن الهرمزان عبيد الله وانطلق ، وخرج الناس خلفه ، وأخذ بعض الناس يلتمسون من ابن الهرمزان العفو عنه ، فالتفت إلى الناس وقال :

— إلى قتله ؟

— نعم .

— أفلكم أن تمنعوه ؟

— لا .

— إنى أتركه لله ولكم .

وترك ابن الهرمزان عبيد الله ، وأطلق سراحه ، فهجم الناس على ابن الهرمزان والفرح يهزهم ، واحتملوه على رءوسهم وأكفهم ، وعادوا به إلى منزله فرحين .

الفصل الثالث والثلاثون

ولاية سعد الكوفة

« أوصى الخليفة من بعدى أن يستعمل سعد بن أبى وقاص ، فإنى لم أعزله عن سوء » .

(عمر بن الخطاب)

استقر الأمر لعثمان ، فراح يفكر فى أمر العمال . فرأى أن يعزل المغيرة عن الكوفة ، وأن يولى سعدا ، فهو أعلم الناس بها وبأهلها ، فبعث إليه ، وأمره أن يتجهز للخروج إلى الكوفة ، فحمل أزواجه وأولاده وعاد إلى قصر سعد .

انقضت سنة وسعد فى الكوفة يقوم بشئونها ، وكان على بيت المال عبد الله ابن مسعود ، وأحس سعد فى يوم من الأيام حاجة إلى المال ، فانطلق إلى بيت المال وسأل ابن مسعود أن يقرضه ما يحتاج إليه ، فأقرضه من بيت المال ، ومرت الأيام ولم يستطع سعد أن يسدد دينه ، فجاءه ابن مسعود وسأله أن ادفع إلى بيت المال ما أخذت ، فاعتذر إليه سعد وطلب منه أن يمهله قليلا ، ولكن ابن مسعود أصر على وجوب السداد فورا ، فأخبره سعد أنه لا يملك ما يوفى الدين ، وأنه إذا خرج عطاؤه سدد ما عليه .

لم ينتظر ابن مسعود طويلا ، بل استعان بأناس وبعثهم إلى سعد يطلبون منه سداد ما أخذ ، فاعتذر إليهم بعدم قدرته على السداد ، ولم يكتف بذلك ، بل بعث إليه أناسا يطلبون منه استنظاره ، ولكن ابن مسعود أبى ، وانتشر خبر دين سعد فى الكوفة ، فانقسم الناس فريقين : فريق مع سعد ، وفريق مع ابن

مسعود ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، ونزغ الشيطان بينهما وراح كل فريق يلوم الفريق الآخر ، فانتقلت المسألة من دين ومطالبة إلى تحزب بين فريقين .

وفى يوم جلس سعد وابن أخيه هاشم بن عتبة وبعض نفر من المسلمين ، وأقبل ابن مسعود ، فالتفت إلى سعد وقال :

ــ أد المال الذى قبلك .

فرفع سعد نظره إليه وقد بان الغضب فى وجهه وقال :

ــ ما أراك إلا ستلقى شراً . هل أنت إلا ابن مسعود عبد بني هذيل ؟

فثار غضب ابن مسعود فقال :

ــ أجل والله إنى لابن مسعود ، وإنك لابن حمينة .

ورأى هاشم ارتفاع الجدل بينهما ، وخشى اندلاع لهيب المناقشة الحادة التى يخاف عقباها ، فشاء أن يطفئها فقال :

ــ أجل والله ، إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ ينظر إليكما . فخرج ابن مسعود ولكنه كان يعيد الكرة بين الفينة والفينة ، واستمر التحزب بل ازداد على الأيام قوة ، ورأى أحد رسل عثمان ما عليه أهل الكوفة من فرقة ، فعاد إلى عثمان وأنبأه كل شيء ، أنبأه نبأ الخلاف الذى شجر بين سعد وابن مسعود ونبأ افتراق الناس وبعضهم يلوم بعضا ، فغضب عثمان على كل من سعد وابن مسعود فأرسل إلى سعد أنه قد عزله عن ولاية الكوفة ، واستعمل الوليد بن عقبة .

بلغ سعدا أن عثمان قد عزله ، فراح يعد حوائجه للعودة إلى المدينة .

وفيما هو يتجهز للعودة ، دخل ابنه عليه ، وسأله ما يفعل ؟ فقال :

ــ سنعود إلى المدينة .

ــ ولم ؟

ــ عزلنا عثمان .

فثار الابن ، وراح يردد : « كيف يفعل عثمان هذا ؟ ونحن الذين جئنا به إلى الخلافة ، واستمر فى التحدث عن فضائلهم ، فالتفت أبوه إليه وقال :

ــ يا بنى : إياك والكبر ، وليكن فيما تستعين به على تركه علمك بالذى فيه كنت ، والذى إليه تصير ، وكيف الكبر مع النطفة التى منها خلقت ، والرحم التى منها قذفت ، والغذاء الذى به غذيت .

وخرج سعد من الكوفة للمرة الأخيرة ، فلن يشاهدها بعد اليوم ، ولن يعود إليها ، وانطلق إلى المدينة ليشاهد ثورة الأمصار عن كثب .

الفصل الرابع والثلاثون

ثورة الامصار

﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

(قرآن كريم)

عاد سعد إلى المدينة ، ومكث بها مدة ، وخالط أهلها ، فوجد تغيرا وتبدلا ، وجد الناس يتهامسون ويتناقلون أخبار الأمصار ، ويوسعون الأرض إذاعة ، فرأى محادثة أهل الرأى فى ذلك ، فاجتمع بعلى وطلحة والزبير ، فأخذوا يتذاكرون ما يخوض الناس فيه من حديث تذمر الأمصار ، وتأهبهم للانقلاب على عثمان ، فجمعوا رأيهم على مفاتحة عثمان فى ذلك ، فانطلقوا إليه ، واجتمعوا به وقالوا له :

ــ يا أمير المؤمنين : أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟

ــ لا والله .

ــ فإنا قد أتانا أن الناس فى الأمصار مستاءون من عمالهم ، ومتذمرون من سوء تصرفهم ، وأنهم مستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :

ــ فأنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا على .

ــ نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال وعادوا جميعا من الأمصار وقد قالوا :

ـــ ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، الأمر أمر المسلمين . ولم يعد عمار بن ياسر الذى أرسل إلى مصر ، فحسب الناس أنه قد اغتيل ، ولكن عمارا كان فى مصر قد اتصل بالثوار ، وكان يستمع إلى شكاياتهم حتى اقتنع بها فانضم إليهم .

واستمرت الشائعات ترد إلى المدينة ، فيرفعها أهل الشورى إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى الأمصار : أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة ، منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شيء . ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى لعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون ، فيا من ضرب سرا ، وشتم سرا ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن الله يجزى المتصدقين .

ولم يكتف عثمان بذلك ، بل بعث إلى عمال الأمصار ليوافوه ، وليسمع منهم ما يسخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم : فوافاه العمال ، فقال لهم :

ـــ ويحكم ! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، وما يعصف هذا إلا بى .

ـــ ألم تبعث ؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا .

واستمر الحديث بين عثمان وعماله ، ثم خرج العمال جميعا وبقى معاوية ، فأرسل عثمان إلى سعد وعلى والزبير وطلحة ، وقدم سعد ودخل على أمير

المؤمنين ، وانتظر حتى يتم عقد أهل الشورى ، فلما التأم الجمع ، التفت معاوية إليهم وقال :

أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته فى الأمة ، وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع فى ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبرت سنه ، وولى عمره ، ولو انتظرتم به الهرم كان قريبا ، مع أنى أرجو أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد فشت قالة خفتها عليكم ، فما عبتم فيه من شيء فهذه يدى لكم به ، ولا تطمعوا الناس فى أمركم ؛ فوالله لئن طمعوا فى ذلك لا رأيتم فيها أبدا إلا إدبارا .

فالتفت على إلى معاوية وقال له :

— ومالك وذلك ؟ وما أدراك ؟ لا أم لك .

فقال معاوية فى هدوء :

— دع أمي مكانها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى ﷺ ، وأجبنى فيما أقول لك .

فقال عثمان :

— صدق ابن أخى ، إنى أخبركم عنى وعما وليت ، إن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا ، وأن رسول الله ﷺ كان يعطى قرابته ، وإنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شيء من ذلك المال لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لى ، فإن رأيتم خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع .

فقال سعد :

— أعطيت مروان فرده .

وقال الزبير :

ــــ أعطيت عبد الله بن خالد فرده .

فوعدهم عثمان برد ما أعطاهم ، فخرجوا من عنده راضين .

كاتب أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وتواعدوا على اللقاء فى المدينة ، فخرج أهل مصر إلى المدينة مدعين الحج ، وخرج أهل الكوفة والبصرة ، وبالقرب من المدينة سارت الرسل بين جماعات الثوار .

بلغ عثمان مسير الثوار إلى المدينة ، وعلم أن المصريين قد نزلوا بذى قار ، وكان عثمان يعلم منزلة على فى الناس ، فأرسل إليه وطلب منه أن يخرج للقائهم وردهم ، وأرسل إلى عمار بن ياسر أن يخرج مع على ، ولكن عماراً أبى ، فأرسل عثمان إلى سعد وقال له :

ــــ أرسلت إلى عمار أن يخرج مع على فأبى ، ألا تأتيه فتكلمه أن يخرج مع على ؟

فخرج سعد وانطلق ودخل على عمار وسلم عليه ثم قال :

ــــ يا أبا اليقظان ألا تخرج فيمن يخرج مع على ، وهذا على يخرج فاخرج معه ، واردد هؤلاء القوم عن إمامك ، فإنى لأحسب أنك لم تركب مركبا هو خير لك منه .

ــــ لا .

ــــ اخرج يا عمار مع على وكلم الناس لعلهم يرجعون عن المدينة .

ــــ والله لا أردهم عنه أبداً .

وأيقن سعد ألا فائدة من طلب عون عمار ، فقد حاول أن يفتله بكل وجه دون جدوى . فعاد إلى عثمان وأخبره بقول عمار ، ولكن عثمان لم يصدق قول سعد فأقسم له سعد أنه يناصحه ويقول له الحق .

وعاد على إلى عثمان وأخبره أنه تمكن من إقناع أهل مصر ، وأنهم قد عادوا

إلى ديارهم ، وسرى هذا النبأ فى المدينة فانتعشت ، وحسب أهل يثرب أن الزوبعة قد مرت ، وما دار بخلدهم ، أنها تستجم لتقتلع كل ما يصادفها ، وتخلع ما يقف فى طريقها .

انقضى اليوم بسلام ، وأقبل اليوم الثانى ، فجاء مروان عثمان وقال له :

ـــ تكلم ، أعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا ، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا ، فإن خطبتك تسير فى البلاد ، قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم ، فيأتيك من لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان أن يخرج ليخطب ، ولكن مروان لم يزل به حتى خرج ، واعتلى المنبر وقال : « أما بعد ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم » . وكان عمرو بن العاص فى المسجد ، وكان عاملا على مصر وقد عزله عثمان فساءه أن تخمد نار الفتنة ، وشاء أن يحركها ويؤجج نارها ويزكيها ، حتى يندلع لهيبها ، فيثأر لعزله ، فانتهز الفرصة المواتية فاهتبلها وصاح من ناحية المسجد :

ـــ اتق الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت نهابير وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب .

وهم عثمان أن يرد على عمرو ولكن صوتا آخر نادى من ناحية أخرى :

ـــ تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك .

فرفع عثمان يديه مدا واستقبل القبلة فقال :

ـــ اللهم إنى أول تائب تاب إليك .

وعاد عثمان إلى داره ، وخرج عمرو بن العاص ليؤلب الناس عليه ، وبينا أهل المدينة فى دورهم هادئون ، إذ ارتفعت أصوات بالتكبير ، فارتجت المدينة وخرج الناس يسألون عن الخبر ، وخرج سعد فعلم أن المصريين قد قفلوا

راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان ، فانطلق إلى القوم يحادثهم ، فقالوا له :

ـــ من كف يده فهو آمن .

وجاء على فأسرع سعد إلى الثوار فسألهم :

ـــ ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

ـــ أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا .

وأقبل أهل الكوفة والبصرة فسألهم على :

ـــ وأنتم ما جاء بكم ؟

ـــ نحن ننصر إخواننا .

فقال على :

ـــ كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

ـــ ضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلنا .

واعتزل الناس فى دورهم ، وفى يوم اجتمع الناس فى المسجد وكان الثوار جالسين فيه ، وخرج عثمان فسكتوا فكأن على رأسهم الطير ، وساد المسجد سكوت الرموس ، فخطبهم عثمان وأعطاهم الرضا وبكى واستمر يردد :

« اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم أنى أتوب إليك ، إذا دخلت منزلى فادخلوا على ، فوالله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحين مروان وذويه » .

عاد عثمان إلى داره ، وخرج سعد ليزور خليفة رسول الله ، فرأى الناس يركب بعضهم بعضا ، ثم رأى باب عثمان يفتح ويخرج منه مروان ويقول :

ـــ شاهت الوجوه إلا من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأمير

المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه وإلا قر فى بيته .

فعجب سعد كيف يقول مروان ذلك بعد مقالة عثمان ، وكيف يقبل عثمان أن يكون سيقة لمروان يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبه الرسول ؟! يا لمروان إنه يقود عثمان إلى الهلاك .

وانطلق سعد وقد عزم على أن يعتب على مروان .

ثار الناس بعد خطاب مروان ، وبات أهل يثرب يوجسون خيفة ، وما استطاع الناس أن يبرحوا دورهم ، واعتزل عثمان فى داره ، وما كان يصلى بالناس ، ووقف على داره أبناء الصحابة يذبون عنه ، ويمنعون الثوار من الدخول عليه .

ورأى عثمان ثورة الناس الجامحة ، فأرسل إلى على ، ولكن علياً ساءه تصرف عثمان ، ولعب مروان به فصاح بصوت عال مغضب :

ـــ قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

وجاء سعد ودخل على عثمان وغاب عنده مدة طويلة ، وخرج من عنده ، فرأى عند الباب أناسا كثيرين يصيحون يطلبون دمه فاسترجع ، وبانت الدهشة فى وجهه : أبلغت الثورة حد طلب دم خليفة رسول الله ؟ والتفت حوله فرأى مروان ، فطأطأ رأسه ، وبأن الندم فى وجهه . لقد هاجم عثمان بعد خطبة مروان الأخيرة ، واتهمه بالانصياع إلى مروان والانقياد له ، واقترب مروان منه وقال :

ـــ الآن تندم ، أنت أشعرته .

ـــ أستغفر الله ، لم أكن أظن الناس يجترئون هذه الجرأة ، يطلبون دمه ، وقد دخلت عليه الآن ، فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك ، فنزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال لا لا أتمادى فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجور

كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع .

ورأى سعد الجموع الثائرة ، فاستل سيفه ، وتأهب للدفاع عن عثمان خليفة المسلمين ، فقال له مروان :

ـــ إن كنت تريد أن تذب عنه فعليك بابن أبى طالب .

فأطرق سعد مفكراً ، فوجد أن عليا وحده هو الذى يستطيع أن يرد هذه الجموع الثائرة لمكانته، ولحبهم إياه ، فانطلق وقد عقد العزم على محادثة على .

خرج سعد حتى أتى عليا فى المسجد وهو بين القبر والمنبر وقال :

ـــ يا أبا الحسن : قم فداك أبى وأمى ، جئتك والله بخير ما جاء به أحد قط إلى أحد ، تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتحقن دمه ، وترجع الأمر على ما نحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضى .

ـــ تقبل الله منك يا أبا إسحاق ، والله مازلت أذب عنه حتى إنى لأستحى ، ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر هم الذين صنعوا به ما ترى ، فإذا نصحته ، وأمرته أن ينحيهم استغشنى حتى جاء ما ترى .

ـــ قد تاب .

ـــ أى خير توبته هذه .

وقام على وانصرف وقفل سعد عائدا إلى داره ومكث بها ، وقد قال :

ـــ لا أشهد قتله .

وجاءه خبر قتله ، فأطرق حزينا وغمغم : « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

الفصل الخامس والثلاثون

الاعتزال

(إن الله يحب العبد الغني الخفي التقي) .

(حديث شريف)

قتل عثمان ، وخشى الناس الثوار فاعتكفوا فى دورهم ، واستمرت المدينة تموج بالثوار موجا ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس فى مبايعة خليفة لهم ، فانطلق المصريون إلى على ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقالتهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا إليه رسلا لمحادثته فى أمر البيعة ، ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، والتمس البصريون طلحة فلقيهم ولم يقبل بيعتهم ، وانقضى اليوم الأول ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقى عثمان فى داره لا يجرؤ أحد على دفنه خشية بطش الثوار به .

وطلعت شمس اليوم الثانى ، فراح الثوار يفكرون فيمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعدا ، فبعثوا إليه وفدا يكلمه فى ذلك : خرج وفد الثوار وجاءوا سعدا وقالوا له :

ـــ إنك من أهل الشورى فرأينا فيك يجتمع فأقدم نبايعك .

فقال لهم :

ـــ إنى وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لى فيها على حال .

وصمت قليلا ثم قال :

لا تخلطن خبيثـــات بطيبـــة   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وانقضى اليوم الثانى ولم يهتد الثوار إلى خليفة ، وبقى عثمان فى داره لم يقبر ، وأهل داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ، وتصرم اليوم الثالث كما تصرم سابقاه ، وجاء الزبير إلى بيت عثمان ، ولما هدأ الناس وأرخى الليل سدوله ، خرجوا بعثمان وهم يلتفتون وجلين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم ، حتى إذا بلغوا جدارا ، دفنوه وقفلوا راجعين مسرعين لا يلوون على شيء ، وهكذا تم دفن عثمان خليفة المسلمين ، وصهر الرسول ، فى هجعة الليل ، وغفلة من الناس .

تلفت المسلمون حولهم ، فوجدوا فوضى ضاربة أطنابها ، ووجدوا ثوارا يحتلون المدينة ولا أمير عليها ، فانطلق أصحاب الرسول حتى دخلوا منزل على ، فقالوا له :

ـــ إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ﷺ .

ـــ لا تفعلوا ، فإنى أكون وزيراً خير من أن أكون أميرا .

ـــ لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك .

ـــ ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفيا ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

وخرج على إلى المسجد وبايعه أصحاب الرسول إلا سعدا فإنه لم يبايعه ، فإنه لم ينس لعلى يوم جاءه قبل مقتل عثمان يسأله أن يكفكف الناس عن عثمان ، ورفضه ذلك بحجة أنه كثيرا ما نصحه ولكنه كان يستغشه .

وبايع الناس عليا ، وأصبح خليفة للمسلمين ، وابتدأت الفتن تجر بعضها بعضا ، فقد بايع طلحة والزبير ، وبعض نفر من المسلمين وهم يمنون النفس بمواتاة الفرصة التى ينقلبون فيها على على ، وينتزعون الأمر منه ، وكانت عائشة

أم المؤمنين قد خرجت للحج وعثمان محصور ، فلقيها رجل من أخوالها ، وهى فى طريقها إلى المدينة فقالت :

— ما وراءك ؟

— قتل عثمان ، واجتمع الناس على على ، والأمر أمر الغوغاء .

— ما أظن ذلك تماما ، ردونى .

وعادت راجعة إلى مكة وكان طلحة والزبير قد استأذنا عليا فى العمرة فأذن لهما ، بلغت عائشة مكة ودخلتها فوافاها عبد الله بن عامر الحضرمى وكان أمير عثمان على مكة فقال :

— ما وراءك يا أم المؤمنين ؟

— ردنى أن عثمان قتل مظلوما ، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

واجتمع طلحة والزبير بعائشة أم المؤمنين ، واتفقوا على المطالبة بدم عثمان ، فقامت أم المؤمنين تحرض الناس فقالت :

— أيها الناس ، إن هذا حدث عظيم ، وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشأم ما عندهم ، لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

وشخصت أم المؤمنين إلى البصرة مع الشاخصين ، وخرج على لقتال شاق عصا الطاعة ، وابتدأت الحروب بين المسلمين ، فاعتكف سعد فى أبلة ، ولم يشأ أن ينضم إلى أحد الفريقين ، فكيف يشترك فى حرب يقتل المسلم أخاه المسلم ؟ إنه لا يقر أن يهرق المسلمون دماءهم فى محاربة إخوانهم فى الدين ، إنه امتنع عن مبايعة على ، ولكنه لا يقر محاربته ، أن لعلى فضله ومنزلته . واستمر معتزلا فى إبلة ، وجاء ابنه عمر إليه يوما وقال له :



.. يا بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقى

— الناس يتنازعون الإمارة وأنت ها هنا ؟!

فصمت سعد قليلا ، فاستأنف ابنه الحديث :

— اخرج يا أبت فإنك أحق بها من المتنازعين .

فقال سعد :

— لا . لن أخرج أبدا ، إنى قد تركت الإمارة ، لا شأن لى فيها .

— ولم يا أبت ؟

— يا بنى ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد الخفى التقى » .

وخرج ابن سعد ، والناس يتطاحنون فى سبيل الإمارة ، وبقى سعد فى عزلته ، وجاء هاشم ابن أخيه إليه وقال له :

— يا عم ، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر .

— أريد من المائة ألف سيف سيفا واحدا ، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع .

الفصل السادس والثلاثون

معاوية فى مكة

﴿ كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ .

(قرآن كريم)

دارت عجلة الزمن ، فطوت خلقاً كثيراً فى حروب المتقاتلين على الإمارة ، وطحنت المتطاحنين ، فقتل أحدهم الزبير بن العوام يوم الجمل ، وعاد بسيفه إلى على ، فلما رأى على السيف ، طأطأ رأسه وقال :

ـــ سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ .

وتم النصر لعلى يوم الجمل ، ولكن لم يتم له الأمر ، فهناك فى الشام معاوية بن أبى سفيان يطالب بدم عثمان ، ويناوئ علياً ، فسار على إليه والتقى الجمعان فى صفين ، وكاد جيش على أن ينتصر ، ورأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد ، وخاف فى ذلك الهلاك ، فالتفت إلى معاوية وقال :

ـــ هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة ؟

ـــ نعم .

ـــ نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها ، وجدت فيهم من يقول بلى ، ينبغى أن نقبل ، فتكون فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا بلى نقبل ما فيها ، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين .

ورفعت المصاحف ، فأثرت خدعة عمرو فى الناس فقالوا :

— نجيب إلى كتاب الله عز وجل ونبيب إليه .

كان سعد معتزلا ولكنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليعلم ما تم بين المتقاتلين ، وفى يوم خرج إلى دومة الجندل يتنسم الأخبار ، فلمح فارساً مقبلا يثير النقع خلفه ، ولما اقترب الفارس تبينه سعد ، فإذا هو ابنه فسأله :

— ما وراءك يا عمر ؟

— قد حكم الناس أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فاشهدهم ، فإنك صاحب رسول الله ﷺ ، وأحد الشورى ، ولم تدخل فى شيء كرهته هذه الأمة ، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة .

— لا أفعل . إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه تكون فتنة ، خير الناس فيها الخفى التقى » والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

وانطلق سعد ، وجاء الحكمان إلى دومة الجندل ، وانتظر سعد موافاة ابنه ليخبره ما تم فى التحكيم ، وفى يوم وافى عمر أباه وقال له :

— تم الأمر لمعاوية .

— وكيف ؟

— خدع عمرو أبا موسى .

— وكيف تم ذلك ؟

— اتفقا فيما بينهما على أن يخلعا هذين الرجلين ، ويجعلا الأمر شورى بين المسلمين ، فيختاروا لأنفسهم من أحبوا ، فقام أبو موسى وقال : « إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ؛ وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا » . ثم تنحى وأقبل عمرو بن

العاص فقام مقامه وقال : « إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والمطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » فقال أبو موسى : « مالك ، لا وفقك الله غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

قال عمرو : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

* * *

لم يسفر التحكيم عن نتيجة حاسمة ، فما توقف على عن القتال ، ولا أصبح معاوية خليفة للمسلمين لا ينازعه منازع ، بل استمر القتال بين المسلمين ، فاتفق ثلاثة من الرجال على قتل على ومعاوية وعمرو ، فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه ، وتوجه كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب ، ووافى الأجل ، فضرب بن ملجم عليا بالسيف فقتله ، أما معاوية وعمرو فقد نجيا من القتل .

وبويع الحسن بن على خليفة للمسلمين ، ولكن لم يلبث أن تنازل لمعاوية ، فأصبح أمير المؤمنين بلا منازع ، واستتب له الأمر ، وخرج للحج فمر على المدينة ، ودخل بيت سعد ودعاه للحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من أهل الشورى ، فخرج مع معاوية معززا مكرما ، ولما بلغا مكة ، طافا معاً ، وانتهت مراسيم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته . وجلس معاوية على سريره ، وأجلس سعداً عليه معه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكرون ويذكران ما مضى من أحداث . وغر معاوية إقبال سعد عليه فوقع

فى على وشرع فى سبه ، فبان الغضب فى وجه سعد وقام من على السرير وقال لمعاوية بصوت فيه حدة ، وفيه غضب :

ـــ أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على ، والله لأن تكون فى خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صهراً لرسول الله ﷺ ، لى من الولد ما لعلى ، أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لى ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لى ما قاله فى غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت .

وخرج سعد من دار الندوة مغضباً .

الفصل السابع والثلاثون

الفـراق

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ .

(قرآن كريم)

انسلخت ثمانون سنة من عمر سعد ، شهد خلالها مولد الإسلام ثم نموه ، حتى إذا ما هم ليقف على قدميه أحاط به أعداؤه من كل جانب فاضطهدوا المسلمين ؛ اضطهد سعد وعذب وطرد وشرد ، ولكنه احتمل صابراً ، واثقاً من أن النصر الأخير للإسلام والمسلمين ، واشتد ساعد الإسلام على الرغم من السيوف المتأرجحة فوق الرقاب ، فراح المسلمون يذبون عن دينهم ، ويدافعون عن كياتهم ، فخاض سعد فى سبيله معارك هائلة يشيب من هولها الوليد ، حتى توطدت دعائمه ، ورفعت أعلامه ، ورفرفت على العالمين ، فقرت عين سعد ، واطمأنت نفسه ، وأخذ الإسلام فى الإشراق ، وأخذ سعد فى الغروب ، فسقط أخيرا فريسة للضعف والمرضى ، فلزم داره ، وأخذت صور الماضى الحبيب تتماثل أمام عينيه ، وراحت ذاكرته تمده بها دون ترتيب أو نظام ، وكثيرا ما كانت تلك الصور يتداخل بعضها فى بعض حتى لتمتزج وليختلط عليه الأمر ، وكثيرا ما كان خياله يقفز به من مكة إلى المدينة إلى العراق ؛ رأى نفسه على راحلته يخرج مع النبى للحج ، فيسقط مريضا عقب

إتمامه مناسكه ، حتى يشرف على الهلاك ، فيدخل محمد الحبيب عليه فى مرضه ، ويدعو له : « اللهم امض لأصحابى هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، ولكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله إن مات بمكة » ، ثم يقفز به خياله إلى المدينة فيرى نفسه يحفر مع الناس الخندق ، ويحمل التراب على عاتقه فتعترضهم كدية فيخبرون النبى ﷺ خبرها فيضربها بمعوله فتتفتت ، وتبرق منها شرارة ، فيقول النبى : « ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها » إنه ليعى هذا الكلام الآن أكثر من أى وقت مضى ، لقد كان القدر آنئذ يشير إليه ، إن هذا هو قاهر الفرس ومحقق نبوة نبيه ، وكر به خياله راجعا إلى أول يوم سمع فيه بالإسلام فرأى نفسه حدثا يبرى النبل فى مكة وأبا بكر يفد إليه ليبلغه نبأ ظهور دين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة وعبادة إلـه واحد لا شريك له ، وما إن تذكر النبل حتى قفز به خياله إلى يوم أحد ، يوم وقف مع بضع نفر من المسلمين يذب عن النبى ، فتطايرت سهامه حتى بلغ ما رماه ألف سهم ، وكان النبى يقول : « ارم أيها الغلام الحزور ، فداك أبى وأمى » ، وتزاحمت الصور فى رأسه وبلغ منه الجهد فأغفى إغفاءة خفيفة ، وما لبث أن فتح عينيه ، فوجد رأسه فى حجر ابنه مصعب فحاول أن يتبسم ولكن الابتسامة ماتت على شفتيه قبل أن تولد ، فقد اشتد به الوجع ، ورأى مصعب ذبول أبيه ، وما يقاسيه من ألم ، فلم يملك نفسه ، فغامت عيناه بالدمع ، ثم أخذت الدموع تتساقط على خديه ، فلما رأى سعد ذلك ، قال بصوت ضعيف :

ــ ما يبكيك يا بنى ؟ والله إن الله لا يعذبنى أبدا ، وإنى من أهل الجنة .

وأقفل عينيه قليلا ، ثم فتحهما وقال لمن حوله :

— إيتونى بتلك الجبة الصوف التى قابلت بها المشركين يوم بدر ، فما خبأتها إلا لهذا اليوم .

فجىء بالجبة وتناولها فضمها إلى صدره ، وأسبل عينيه ، وأخذت مشاهد بدر تمر بمخيلته ، فارتسم على وجهه هدوء واطمئنان ، ومرت مدة ثم فتح عينيه وقال لمن حوله :

— كفنونى فيها .

وانبهرت أنفاسه ، وخرج نفس ما عاد غيره ، فقضى سعد نحبه فى قصره بالعقيق ، على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، ولما بلغ أهل المدينة خبر موته ، انطلق الرجال إلى داره وجهزوه ، وكفنوه فى جبته التى خبأها يوم بدر لهذا اليوم ، ثم حملوه على الرقاب حتى بلغوا المدينة ، فلما دخلوا به المسجد ، طلب أزواج النبى أن يدخل به إلى حجرهن وأن يترك بها ليصلين عليه ، وتمت الصلاة ، فخرج به الناس من باب الجنائز ، وانطلقوا إلى البقيع ليقبروا آخر أهل الشورى ودمعهم جار ، وحزنهم عميق .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد)	ترجمة مع محمد محمد فرج	يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

		الطبعة الأولى
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله وإسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٤
ذكريات سينمائية		أبريل سنة ١٩٧٤
كشك الموسيقى		سنة ١٩٧٥
خفقات قلب		سنة ١٩٧٥
صور وذكريات		سنة ١٩٧٥
الاسراء والمعراج		سنة ١٩٧٧
عدو البشر		سنة ١٩٧٨
أبطال الجزيرة الخضراء		سنة ١٩٧٨
النمر		سنة ١٩٧٩
الله أكبر		سنة ١٩٧٩
ثلاثة رجال فى حياتها		سنة ١٩٧٩
مسجد الرسول		سنة ١٩٨٠
فات الميعاد		سنة ١٩٨٠
آدم إلى الأبد		سنة ١٩٨٢
العرب فى أوربا		سنة ١٩٨٤

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

في عشرين جزءاً

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

رقم الايداع ٤٠٣٢

الترقيم الدولى ٥ ــ ٢٧٤ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٦٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه